الرواية التي تنبأت بثورة 25 يناير

أجنحة الفراشة

الطبعة الرابعة

محمد سلماوي



الدار المصرية اللبنانية

أجنحة الفراشة

الرواية التي تنبأت بثورة 25 يناير

سلماوي ، محمد
أجنحة الفراشة : رواية / محمد سلماوي
. ــ ط4. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2012.
192 ص ؛ 21 سم.
تدمك : 9 - 651 - 427 - 977 - 978
1 ــ القصص العربية.
أ ــ العنوان . 813
رقم الإيداع : 23581 / 2010

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1432 هـ ـ يناير 2011 م
الطبعة الثانية : ربيع أول 1432 هـ ـ فبراير 2011 م
الطبعة الثالثة : جمادى الأولى 1432 هـ ـ أبريل 2011 م
الطبعة الرابعة : صفر 1433 هـ ـ يناير 2012 م

أجنحة الفراشة

الرواية التي تنبأت بثورة 25 يناير

محمد سلماوي

الدار المصرية اللبنانية

أَثَرُ الفَراشَةِ لا يُرى

أَثَرُ الفَراشَةِ لا يَزُولْ

هُوَ جَاذِبيةُ، غَامِضٍ

يَسْتَدْرِجُ المعْنَى، وَيَرْحَل

حِينَ يتَّضِحُ السَّبيلْ

هُوَ خِفَّةُ الأَبَدِيِّ في اليَوْميِّ

أَشْوَاقٌ إِلى أَعْلَى

وَإِشْرَاقٌ جَمِيلْ

هُوَ شَامَةٌ في الضَّوْءِ تُومِئُ

حِينَ يُرْشِدُنَا إِلى الكَلِمَاتِ

بَاطِنُنَا الدَّلِيلْ

محمود درويش

(1)

ضحى

توقف المرور تمامًا في ميدان التحرير فأصيب قلب المدينة بالشلل الكامل. كل المخارج من الميدان إلى بقية أحياء القاهرة سُدت، وكل المداخل إلى الميدان اكتظت فيها السيارات العامة والخاصة. وكأن محركاتها جميعًا أصيبت فجأة بالعطب.

كان على ضحى أن تمر على الفندق الكبير الواقع في الميدان كي تتسلم «الجاكت» الذي ستأخذه معها في السفر إلى روما. حين اتصلت في الصباح بمحل التنظيف بالفندق أخبروها بأن «الجاكت» جاهز للاستلام، وكان لديها الوقت الكافي لاستلامه، لكنها وجدت نفسها الآن معتقلة داخل سيارتها كأنها في زنزانة لا تستطيع الخروج منها.

أطلت من الشباك على بقية المساجين في السيارات المجاورة؛ فوجدت وجوههم جميعًا قد كستها علامات الأسى والاستسلام. نظرت إلى مؤخرة رأس السائق ورقبته الغليظة فشعرت أنه هو السجان المسئول عن اعتقالها. قالت له: «قلت لك أن تأتي للفندق من مدخله الواقع على الكورنيش وليس من الميدان». لم يرد؛ مما زاد من حنقها. كانت تعرف أنه لكي يصل إلى الفندق من الجيزة حيث تسكن كان يجب أن يمر عبر شارع قصر العيني إلى ميدان

التحرير قبل أن يتجه إلى الكورنيش، لكنها كانت تبحث عمن تلقي عليه باللوم في هذا الموقف المتأزم الذي يمكن أن يتسبب في تأخرها عن موعد الطائرة.

اتصلت بزوجها من تليفون السيارة. جاءها صوت مسجل: «الجهاز مغلق أو خارج نطاق الخدمة». اتصلت بمكتبه. ردت السكرتيرة. قالت لها إن زوجها مجتمع الآن مع الوزير، ولابد أنه أغلق تليفونه. فطلبت منها أن تبلغه حالما تستطيع بضرورة الاتصال بها لأمر مهم.

كانت قوات الأمن المركزي تقف كالحائط المنيع.. كسور برلين القديم.. كالحائط الفولاذي الجديد الذي أصبح يفصل مصر عن غزة. كان الجنود المتراصون يحولون دون دخول السيارات ـ أو المشاة ـ إلى الميدان. سمعت من بعيد أصوات هتافات المتظاهرين تعلو وتهبط. بعضها بدا قريبا وبعضها بعيد. لابد أن أعدادهم كبيرة هذه المرة. لم تتمكن من رؤيتهم من زنزانتها الصغيرة داخل السيارة. ماذا يريدون؟ لو أن كل شخص اهتم بعمله لكانت حال البلد غير الحال ولاستطاعت أن تصل إلى المطار في موعدها.

التقطت أذناها بعض الأصوات التي كانت تتصايح من خلف كردون الأمن المصمت:

«غير غير الدستور.. قبل ما نكشف المستور!»

«التصويت باطل باطل.. والشباب عاطل عاطل!».

رن جرس تليفون السيارة. كان زوجها: «خير؟ ماذا حدث؟». ردت عليه في انفعال: «حدثت مصيبة وأنت تليفونك مغلق أو خارج نطاق الخدمة». قال متلهفا: «ما المصيبة؟». قالت: «أنني معتقلة هنا في ميدان التحرير

وسط المظاهرات ولن أستطيع اللحاق بموعد الطائرة». «ماذا تقولين؟ معتقلة كيف؟». «ذلك الكردون الأمني الغبي يحول دون تحرك السيارات ولا الناس ولا حتى الهواء». هدأ صوته قليلا وهو يقول: «انتظري قليلا لابد أنهم سيفتحون الطريق بعد قليل». اغتاظت من رد زوجها وأنهت المكالمة.

إنها صديقتها عفت المُلامَة. هي التي قالت لها إن المكان الوحيد الذي يقوم بتنظيف «الشمواه» هو ذلك الكائن بهذا الفندق. لكن ماذا يهم هذا الآن؟ لم تعد تريد أن تأخذ ذلك «الجاكت» الملعون معها في السفر، بل لا تريده على الإطلاق، ستشتري عشرة غيره من روما. فقط تريد أن تخرج من هذا السجن المشدد كي تصل إلى المطار قبل قيام الطائرة.

اتصلت مرة أخرى بزوجها، فرد عليها في هدوء: «ما الأخبار؟». قالت: «ليست هناك أخبار. كل شيء كما هو وأنا كما قلت لك ستفوتني الطائرة». قال لها: «ماذا تريدينني أن أفعل؟». قالت: «لا أعرف. لكنني أعرف وأظنك تعرف أهمية هذه الرحلة بالنسبة لي. إنها مستقبلي كله الذي عملت من أجله سنين ولا أستطيع أن أضيعه بسبب هؤلاء العساكر الأغبياء الذين يسدون الطريق أمامي كالمواشي المتلاصقة». صمت قليلًا ثم قال: «دعيني أكلم الضابط المسئول» قالت: «كيف لي أن أصل إلى الضابط المسئول هذا؟». «اطلبي من السائق أن يسأل عنه العساكر ويحضره لي على التليفون».

نزل السائق من السيارة وتحدث إلى العساكر فأدخلوه عبر الكردون إلى حيث لم تعد تراه.. قالت لزوجها في التليفون: «لقد ذهب الآن السائق، وإذا فتح الطريق قبل أن يأتي فلن أتمكن من تحريك السيارة». لم يرد. ساد بينهما صمت طالما اعتادته في البيت، إلى أن عاد السائق ومعه ضابط ضخم الجثة حياها فناولته سماعة التليفون دون أن ترد. أدخل الرجل رأسه من الشباك

ووضع السماعة على أذنه. لم يقل سوى عبارة «تمام يا فندم» التي أخذ يكررها وهو ينصت لتعليمات زوجها إلى أن انتهت المكالمة. ناولها التليفون وصرخ في العساكر فانفرج الكردون. أشار بيده للسائق فاخترقه في هدوء. صرخ مرة أخرى في العساكر فعادوا يضمون صفوف ذلك الحائط المنيع الذي انفتح وانغلق بصرخته وكأنها الكلمة السحرية.

سألها السائق: «هل نمر الآن على الفندق؟». كادت تقذفه بسماعة التليفون: «أهذا وقته؟ امضِ فورا إلى المطار». ترك السائق ميدان التحرير وصعد كوبري 6 أكتوبر العلوي متجها إلى المطار. عند عبوره فوق ميدان رمسيس شاهدت من أعلى الكوبري تجمعا آخر لقوات الأمن في الميدان. هل كانت هناك مظاهرات هنا أيضا؟ كم هو قبيح منظر تلك السيارات السوداء الكبيرة المتراصة كالأفيال الحزينة التي تركت بيئتها الطبيعية ووقفت تتلقى أوامر مدربي السيرك!.. انطلقت السيارة فوق الكوبري فتلاحقت مشاهد الأبنية المرتفعة وحالت دون رؤية الشارع. فتحت الشباك مستنشقة الهواء الذي اندفع إلى داخل السيارة فأغلق السائق جهاز التكييف.

وصلت إلى المطار فوجدت فريقًا من مكتب زوجها في انتظارها. اقتادها كبيرهم على الفور إلى استراحة الدرجة الأولى، بينما اتجه الباقون إلى السيارة ينزلون أمتعتها. قال لها كبيرهم: «تذكرة السفر والجواز معنا. سننهي كل الإجراءات». لم ترد.

في الاستراحة طلبت من النادل الشاب فنجان «كابتشينو» وأشعلت سيجارة. وقبل أن يأتيها الطلب انطلق صوت الميكروفون في جميع أرجاء المطار يعلن عن قيام طائرة مصر للطيران المتجهة إلى روما. حضر الفريق الذي استقبلها عند باب المطار بكامل هيئته وقدم لها كبيرهم تذكرتها والجواز

قائلًا إن كل شيء تمام ولا داعي لأن تذهب للطائرة إلا بعد سماع النداء الأخير. أخذت منهم أوراقها وتمنت أن يغربوا عن وجهها ففعلوا.

حين انطلق النداء الثاني بعد عدة دقائق أطفأت سيجارتها وأخذت تلملم أغراضها استعدادا لمغادرة الاستراحة والاتجاه إلى البوابة رقم 7 كما ورد في بطاقة السفر. كانت تطالع بعض «كتالوجات» الموضة التي أحضرتها معها فطوتها. أخذت رشفة أخيرة من فنجان «الكابتشينو» الموضوع أمامها وهمت بالقيام من مقعدها حين جاءت مضيفة الاستراحة تقول: «إلى أين يا مدام ضحى؟ لم يحن الموعد بعد». قالت: «لقد نادوا على الطائرة مرتين». فابتسمت المضيفة قائلة: «هذا النداء كان لركاب الدرجة السياحية فانتظري قليلًا حتى يصعدوا الطائرة بكراكيبهم الكثيرة ثم تتوجهين بعد ذلك إلى مقعدك في هدوء». وقبل أن ترد عليها قالت المضيفة: «سأجيئك بنفسي عندما يحين الموعد لأصحبك إلى الطائرة، فأنت لست راكبة عادية». نظرت ضحى حولها حتى تتأكد أن أحدًا من الحضور لم يسمع كلام المضيفة التي كانت تتحدث بصوت عال وكأنها تتعمد أن تعرف بقية الجالسين في الاستراحة أنها مع شخصية مهمة.

انتظرت بفارغ الصبر أن تجد نفسها داخل الطائرة. كان يخالجها شعور غريب بأن هذه الرحلة التي لا تريد أن تبدأ، ستكون نقطة فاصلة في حياتها، نقطة تحوُّل ستقلب حياتها رأسا على عقب، أو هكذا كانت تتمنى. لم تكن سعيدة بحياتها. كانت تشعر بأنه ينقصها شيء، ليس ماديا فقد كان لديها كل ما تريد، وإنما معنوي. كانت تشعر بأن حياتها غير متحققة رغم نجاحها في عملها كمصممة أزياء. كانت أزياؤها تحقق في كل موسم نجاحًا أكبر من الموسم السابق، وأصبح اسمها معروفًا الآن في المجتمع، لكن ذلك كله لم

يكن يملأ الفراغ الذي كانت تشعر به في حياتها. كانت تبحث عن نفسها في حياتها فلا تجدها.

كانت ضحى الكناني في طريقها إلى روما ومنها إلى ميلانو مدينة الموضة في إيطاليا لتقديم عرض لأحدث تصميماتها للأزياء فيما يعرف هناك بصالون الربيع والذي يقام لأهم بيوت الأزياء في العالم. كانت تلك هي المرة الأولى التي تشارك فيها في الصالون. وكانت تتطلع إلى تلك المناسبة بآمال كبيرة؛ ففي هذا الصالون عادة ما تسعى دور الأزياء العالمية للتعاقد مع من يتميز من المصممين الجدد. من يدري قد تلفت تصميماتها التي عكفت عليها طوال السنة نظر القائمين على أحد هذه البيوت فتكون تلك فاتحة جديدة لها إلى العالمية التي كانت تتطلع إليها. فهل تكون تلك هي نقطة التحول التي كانت ستغير حياتها؟.. وتجعلها تحقق ذاتها؟

أمضت الشتاء كله تعد الأزياء التي ستعرضها في صالون ميلانو. لم تقدم عرضا لأزيائها في القاهرة هذا الموسم كما اعتادت كل سنة. كانت منشغلة بما ستقدمه في ميلانو. وفي سبيل ذلك طالعت كل كتالوجات الموضة التي استطاعت الحصول عليها وعرفت نوعية الأزياء التي يحبونها في إيطاليا. كانت عازمة على أن تحوز إعجابهم. أنفقت في ذلك الكثير من الوقت والجهد والمال. لن يصدقوا أن تلك الأزياء مصرية.

كانت عفت علم الدين ومشيرة عبد الرحمن هما أقرب صديقاتها منذ أيام المدرسة، وقد رسمت كل منهما لنفسها طريقا في الحياة مختلفا عن الأخرى، أما عفت فكانت حياتها لا تخرج عن النوادي والزيارات الاجتماعية والكوافير و«السبا»، أو المركز الصحي الذي كانت تذهب إليه كل أسبوع. كانت سعيدة بتلك الحياة، وحين كانت ضحى تسألها: «ألا تشعرين بفراغ

في حياتك؟» كانت تجيبها ضاحكة: «أين هو ذلك الفراغ؟ إنني أتطلع إليه، فحياتي ليست بها لحظة فراغ واحدة». بينما كانت مشيرة أستاذة في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب، كما كان لها تواجد في الحياة الثقافية والأدبية؛ حيث كانت تؤلف الكتب وتشارك في الندوات، وإن كانت في الفترة الأخيرة قد اتجهت قليلا إلى السياسة، لكنها لم تكن تتحدث في ذلك مع ضحى.

أما ضحى فكانت تشعر بأن لها حياة في مجال آخر غير النوادي والحياة الأكاديمية، لكنها لم تكن تعرف هذا المجال. كان يسيطر عليها شعور بأنها لم تجد نفسها بعد، وأن هناك حياة أخرى مقدرة لها غير الحياة التي تعيشها. ربما كانت هذه الرحلة هي التي ستكشفها لها.

أقبلت عليها المضيفة بابتسامتها المصطنعة وصوتها العالي قائلة: «اتفضلي ضحى هانم كل الركاب صعدوا والطائرة الآن في انتظارك».

أخذتها في سيارة خاصة من البوابة حتى باب الطائرة وقدمتها لطاقم المضيفين بالطائرة وكأنها تسلمهم أمانة: «ضحى هانم وصلت.. أروني كيف ستهتمون بها». «اتفضلي يا هانم نورتِنا». جاء صوت كبيرة مضيفات الطائرة: «مكانك معروف دائما في الصف الأول إلى جوار الشباك». كان هذا هو المكان الذي تطلبه كلما سافرت. كان المكان المجاور لها شاغرا فقد طلبت ألا يجسلوا أحدا إلى جانبها إن أمكن، لكن المضيفة قالت وكأنها قرأت أفكارها: «للأسف الطائرة اليوم مزدحمة بعض الشيء.. في الحقيقة ليس هناك مكان واحد شاغر». ابتسمت ضحى دون أن ترد وأشاحت بوجهها إلى النافذة.

انتظرت حتى انصرفت المضيفة، ثم التقطت مجلاتها وأخذت تقلب فيها. جاءها صوت قائد الطائرة: «نرحب بكم على متن الطائرة المتجهة بسلامة

الله إلى مطار «فيومتشينو» بروما.. نحن في انتظار راكب واحد ينهي الآن إجراءاته وسنقلع فور صعوده للطائرة.. نتمنى لكم رحلة سعيدة».

ما لهذه الرحلة تبدو وكأن ركبها عفريت؟! لماذا هذا التأخير؟ كان يومًا صعبًا منذ بدايته. هكذا حالها دائما، هكذا كانت حياتها كلها، لا شيء يأتي سهلًا، كل شيء يأتي بشق الأنفس. طمأنت نفسها على أنها على الأقل أخذت مكانها في الطائرة وضمنت سفرها مهما تأخر الإقلاع.

عادت المضيفة بابتسامة عريضة وبصينية عليها فوط بيضاء صغيرة تتصاعد منها الأبخرة الساخنة. التقطت منها واحدة ودفنت فيها يديها فشعرت بسخونتها تسري في جسدها كله. لسعتها حرارة الفوطة فأغمضت عينيها واستسلمت لها كأنها نشوة سرية تصاعدت بداخلها فكادت تفقدها الوعي.

أفاقت على رائحة عرق ذكوري قوية تخترق كيانها. فتحت عينيها فإذا بالراكب المتأخر قد وصل ورفع ذراعيه يضع أمتعته في المكان المعد لذلك أعلى المقعد الملاصق لها. كانت رائحته طاغية. اكتنفتها بقوة وكأنه أخذها فجأة بين ذراعيه. كم كانت تكره أن يجلس أحد إلى جانبها في الطائرة. مد يده ببعض الصحف التي كان يحملها فوضعها أمامه في الجيب الذي أمام مقعده فجاءتها الرائحة مرة أخرى. أخرجت من حقيبتها قنينة صغيرة بخت رذاذ عطرها على كفها واستنشقته فخرجت على الفور من أحضان هذا الرجل الذي لا تعرفه.

توقفت المضيفة أمام مقعدها بالصحف والمجلات فالتقطت إحداها بلا تمييز ووضعتها في الجيب الذي أمامها دون أن تفتحها، بينما أخذ جارها نسخة من كل جريدة مع المضيفة وقال لها: «لو كان عندك صحف أخرى

آتيني بها، فأنا أتتبع تغطية الصحف لأحد الموضوعات التي تهمني؟».

أخيرًا تحركت الطائرة على الممر الطويل، وبعد ثوان ارتفعت عجلاتها عن الأرض فشعرت بكيانها كله يرتفع في الفضاء. أحست أنها على وشك دخول عالم آخر. نظرت من النافذة فشاهدت ذلك الغشاء الترابي الذي يكسو الجو فوق مساكن وشوارع القاهرة. تابعت المدينة كلها وهي تصغر وتصغر كلما ارتفعت الطائرة في الهواء، إلى أن اخترقت السحاب ووصلت إلى الارتفاع الذي أعلنه قائد الطائرة فاختفت البيوت والشوارع والنيل والصحراء ومصر والأرض كلها.

عادت بظهر مقعدها إلى الوراء وأراحت رأسها على مسنده ثم أغمضت عينيها كي تسدل الستار على ذلك اليوم العصيب الذي نال من أعصابها، وتطلعت إلى الأحداث الكبيرة التي كانت تنتظرها على الشاطئ الشمالي للبحر الذي يفصل بين مصر وإيطاليا.

(2)

أيمن

كانت الرحلة شاقة لكن كان عليه أن يقطعها. لم تكن المسافة طويلة لكنها كانت ستغير مجرى حياته. فيها كان خلاصه من المعاناة التي عاشها سنين. كان أيمن الحمزاوي شابًا في مقتبل العمر وكان عليه أن يقطع الرحلة كي يعرف الحقيقة. كان عليه أن يذهب إلى طنطا ليعرف من هو، ومن أمه، وهل هي على قيد الحياة أو ماتت؟ فكما أن الوطن هو الأم فإن الأم أيضا هي الوطن، والإنسان الذي لا يعرف له أمًا لا يعرف له وطنًا. هو إنسان بلا أصل.. بلا جذور.. بلا هوية.

كانت أول مشاقّ رحلته في ذلك اليوم الغائم هي تلك المتاريس التي قابلته في طريقه إلى موقف أحمد حلمي ليستقل السيارة «البيجو» التي ستوصله إلى طنطا.

كان الطريق مغلقًا وخلف المتاريس وقفت عربات الأمن المركزي المحملة بالعساكر الذين بدا عليهم الإعياء في تلك الساعة المبكرة من الصباح. لم يكن الوقت قد جاوز الثامنة والنصف لكن الشارع كان مليئًا بالناس الذين خرجوا يبحثون عن أرزاقهم.

كانت بعض الأبنية لا تزال تحمل على جدرانها العبارات التي كتبها المتظاهرون بالخط الأسود الكبير:

«فينك فينك يا بلد؟ ضاع مني عمري وقوت الولد».

لم يقرأ بقية الشعارات وكأنه دون قراءتها سيسلم من حملة التفتيش التي أوقفت كل المارة بالشارع كي ينظر الضباط الواقفون على رأس الشارع في بطاقاتهم. لم يكن بينه وبين موقف سيارات الأجرة الذاهبة إلى المحافظات إلا دقائق. لكن حملة التفتيش أوقفت سيارة الميكروباص التي كان يستقلها وأنزلت جميع الركاب وقام أحد الضباط باحتجاز السائق . فحص أوراقه فلم يجدها سليمة على ما يبدو. فاصطف الركاب في طابور أمام الضابط الذي أخذ ينظر في أوراقهم الواحد تلو الآخر.

وأخيرًا جاء دور أيمن فأخذ الضابط أوراقه وفحصها، ثم سأله: «إلى أين أنت ذاهب؟» رد: «إلى موقف أحمد حلمي». سأله الضابط: «لماذا؟». قال: «لأستقل سيارة إلى طنطا». نظر الضابط إليه مليًا ثم أعطاه أوراقه، فانطلق أيمن بخطى سريعة صوب ميدان أحمد حلمي، وحتى لا يتعرض لنفس الموقف ثانية اتخذ شارعًا جانبيًا بدا له أكثر هدوءا ودار حول الشارع الكبير إلى أن خرج بعد قليل بالقرب من الموقف.

قفز على الفور داخل إحدى السيارات التي سمع التباع ينادي بأنها ذاهبة إلى طنطا وانتظر قليلًا إلى أن امتلأت بالركاب ثم انطلقت به إلى الطريق الزراعي حيث الخضرة على جانبي الطريق ولا ضباط هناك ولا متاريس ولا عربات أمن مركزي.

قطع أيمن الرحلة إلى طنطا والتي لا يفترض أن تزيد على الساعة ونصف الساعة في أكثر من ثلاث ساعات. تعطلت السيارة التي استقلها بعد حوالي

أربعين دقيقة من بداية الرحلة. توقف السائق في الطريق. ترك الركاب وذهب يبحث عن سير جديد للمحرك بدلًا من ذلك الذي انقطع. اختفى لمدة نصف الساعة قبل أن يعود بالسير المطلوب. ثم توقف السائق مرة أخرى حين شعرت إحدى الراكبات بتعب شديد. كانت حاملًا في شهورها الأخيرة. تصور الركاب أنها ربما تعاني آلام المخاض. كان على جانب الطريق مقهى صغير توقف السائق عنده. وبعد أن شربت السيدة كوب عصير ليمون استعادت عافيتها وواصلت السيارة رحلتها. قال أحد الركاب للسائق ألا يسرع حتى لا يقلب بطن السيدة الحامل، وقال آخر إن سرعته الزائدة هي السبب فيما أصابها.

كانت السيدة تجلس إلى جانب أيمن. كانت في الثلاثينيات من عمرها. كان يمكن أن تكون أمه، فلابد أن له أمًّا حملت فيه مثل هذه الأم لكنه لم يكن يعرفها، تماما مثل الجنين الذي في بطن السيدة التي تجلس إلى جواره والذي لا يعرف أمه بعد. أحس أيمن أنه ذلك الجنين، وأنه مثل الجنين ماض إلى لحظة ميلاده في نهاية هذه الرحلة حيث سيتعرف على أمه لأول مرة.

عاش أيمن حياته يتصور أن المرأة التي في المنزل هي أمه. أليست هي زوجة أبيه والأطفال ينادونها «ماما»، سواء هو وشقيقه الأكبر عبد الصمد أو أختهما نسمة التي تصغره بخمس سنوات؟ صحيح أن الأم كانت تتعامل مع نسمة بشكل مختلف فكانت توليها عناية أكثر وتظهر لها قدرا أكبر من الحنان، لكنه كان يتصور أن ذلك لكونها فتاة، أو لأنها الأصغر سنا.

لم تكن تلك المرأة قاسية القلب ولم تكن تسيء معاملته. كان إذا مرض أعطته ثمن كشف الطبيب ووصفت له كيف يصل إلى عيادته. أما أخته فإذا سعلت أو أصيبت برشح جرت بها الأم إلى الطبيب وتغير نظام الحياة في

المنزل، كما لا يحق لأحد أن يرفع صوته إذا كانت نائمة بعد تناول الدواء، ولا أحد يأكل أمامها إذا كانت ممنوعة من بعض الأطعمة.

كم تمنى وهو طفل أن يكون فتاة حتى تأخذه الأم في صدرها كما كانت تفعل مع نسمة الصغيرة. كم تمنى أن يكون هو الصغير حتى تستذكر له الأم دروسه أو تذهب معه إلى المدرسة في حفل نهاية العام مثل بقية أولياء الأمور.

شب أيمن على هذا الحنين المفقود، حنين القطط الصغار إلى ثدي أمها التي ولدتها في بئر السلم. كان يراقب تلك القطط العمياء المرتعشة وهو عائد من المدرسة، وكان كثيرًا ما يقذف لأمها ببعض قطع الخبز حتى يعينها على إرضاع صغارها ذلك اللبن الدافئ، لبن الأم الذي بدونه يموتون جوعًا.

وفي أحد الأيام عاد من المدرسة فلم يجد القطة ولا أولادها، وحين علم أن الجارة العجوز التي تسكن الدور الأرضي طاردت القطط الصغار من بئر السلم إلى قارعة الطريق أثناء غياب الأم، جن جنونه وازدادت كراهيته لتلك العجوز قبيحة الوجه التي اخشوشنت بفعل السنين فازدادت طباعها حدة مع الجيران وليس مع القطط وحدها.

بحث عن القطط الصغار في جميع الشوارع المحيطة بالمنزل فلم يعثر لأي منها على أثر. كان بين الحين والحين يسمع مواء القطة الأم التي كانت تعود للبحث عن أولادها . قال له شقيقه عبد الصمد : «خلاص يا أخي .. لا تصدع دماغنا بهذه القطط.. هم ليسوا من بقية العائلة!»

بالطبع لم يكونوا من بقية العائلة، لكنهم كانوا يمثلون العائلة التي كان يتطلع إليها، والتي كان يتمنى أن يكون له مثلها، ولم يكن عبد الصمد ليفهم ذلك، فهو لم يكن ينتظر شيئا من تلك «الأم» التي يعيشون معها تحت سقف واحد. كانت حياته مستقلة تمامًا لا يأبه فيها بأحد. كان يعمل في «السوبر

ماركت» الواقع في بداية الشارع، وكان له دخل خاص به يعطيه قدرا من الاستقلالية عن الوالدين. لكن كيف كان يعطيه ذلك اكتفاء ذاتيًا في العاطفة؟ كيف كان يتغلب على ذلك الحنين الغريزي الذي يشعر به الأبناء لوالديهما؟ هذا ما لم يكن أيمن يفهمه.

إلى أن كان ذلك اليوم حين بلغ عبد الصمد السادسة عشرة وعاد إلى المنزل وقد أحضر من قسم الشرطة الأوراق الخاصة باستخراج البطاقة الشخصية. سأله شقيقه الأصغر: «ما هذا؟» فرد عليه وكأنه يحدثه عن أمور الكبار التي لا شأن له بها: «تلك أوراق بطاقتي الشخصية».

كانت تلك هي البداية، تلك هي اللحظة التي عرف فيها لأول مرة أن ما كان يخالجه من شك صحيح.

جلس عبد الصمد على مائدة الطعام في الصالة وأخذ يملأ الاستمارات. سأل والده عن بعض البيانات فطلب منه الأب الأوراق وأخذ يملأ بياناتها بنفسه، وما إن ملأ خانة اسم الأم حتى صاح عبد الصمد: «هذا ليس اسم ماما». سكت الأب ولم يجب ثم قال: «خذ الأوراق وأنت ساكت وقدمها لقسم الشرطة». لم يجادله عبد الصمد كثيرًا. نهض ومعه الأوراق قائلا إنه سيذهب إلى القسم في الصباح لتقديمها. في تلك اللحظة هب أيمن من مقعده وانتزع الأوراق من يد شقيقه وقرأ في خانة اسم الأم «آمنة عبد الرحيم السعدي». ردده بصوت عال ثم نظر إلى والده وقال: «لماذا كتبت هذا الاسم؟» قال له الأب: «لا شأن لك بهذه الأشياء. حين تكبر وتصبح في عمر عبد الصمد سأقول لك». قال أيمن: «لكنك لم تقل لعبد الصمد أيضًا». فلم يرد الأب. ألح عليه الابن ثانية: «من آمنة عبد الرحيم السعدي؟ قل لي يا أبويا». وبعد لحظة تردد قال له الأب: «هي أمك لكنها توفيت».

فغر أيمن فاه للحظة ثم انهمرت من عينيه الدموع كأن والدته قد ماتت في تلك اللحظة. ظل يطارد والده بالأسئلة: «كيف ماتت؟ متى ماتت؟ لماذا لم تقل لنا إن أمنا ماتت؟ لماذا لم تقل لنا هذا من قبل؟».

أخذ الأب يتهرب من الإجابة عن أسئلة ابنه المتلاحقة وكأنها طلقات رصاص صوبت إلى قلبه مباشرة، ثم قال: «تلك جراح قديمة لا داعي الآن لأن ننكأها» فسأله الابن: «وأين دفنت أمي؟ أين قبرها؟ لماذا ..» قاطعه الأب في حدة طالبًا منه الكف عن هذا الحديث.

اضطربت حياة أيمن بعد أن تكشفت له تلك الحقيقة التي قلبت حياته رأسا على عقب. شعر أنه كان يعيش كذبة كبيرة، فأمه ليست أمه، وأمه الحقيقية لا يعرف عنها شيئا، ووالده يخفي عنه ما يحق له أن يعرفه.

في الصباح ذهب عبد الصمد مباشرة إلى قسم الشرطة لاستخراج بطاقته الشخصية بينما ظل أيمن في فراشه غير قادر على النهوض. ظلت تراوده الأسئلة: ترى ما الحقيقة؟من المؤكد أن زوجة والده ليست أمه، فقد كان يعرف ذلك بقلبه دون أن يقوله له أحد. لكن ترى ماذا حدث بالضبط؟ كيف ماتت أمه؟ هل مرضت أو ماتت في حادث؟ ترى أين أهلها؟ لابد أن له أخوالًا وخالات، أين هم؟ لماذا أخفى عنه أبوه كل ذلك. ثم هل صحيح أن والدته توفيت؟ ألا يمكن أن تكون لا تزال على قيد الحياة؟ كيف له أن يعرف ما لا يريد والده أن يعرفه إياه؟

أما عبد الصمد فلم يكن يضيع وقته فيما لا يفيد. كانت الفائدة دائما نصب عينيه، والفائدة عنده لم تكن تتضمن السؤال عن العائلة ومن أفرادها؟ وأين يقيمون؟ وماذا يعملون؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي ظل شقيقه أيمن يسأل عنها. لم يكن هناك من فارق في السن إلا سنتان بينه وبين أيمن، لكنه كان يرى أن شقيقه الأصغر لا يزال ينقصه الكثير حتى يعي معنى الحياة ويعرف

كيف يتعامل معها، فماذا تفيد تلك اللهفة على معرفة العائلة؟ هو أيضا لم يكن يعرف شيئا عن أخواله وخالاته. لم يكن حتى يعرف عن عائلة والده سوى أن جده كان اسمه عبد الصمد وأنه سُمي على اسمه باعتباره الابن الأكبر. لكن ذلك الجد توفي على أي حال، تماما مثل والدته، فلم يره قط ولم يعرفه. كان يعرف عمه الذي كان يعيش في الريف ويأتي لزيارتهم كل بضع سنوات حين يحضر إلى القاهرة لزيارة الحسين أو لاستخراج بعض الأوراق الرسمية. لكن كل ما كان يتذكره عنه هو تلك الأشياء التي يحضرها معه والتي كان من بينها «قشدة الفلاحين» كما أسمتها زوجة والده والتي تعرف لأول مرة على المزازة التي تميز مذاقها. دب أصبعه في الكوز الذي جاءت فيه القشدة وتذوقها خلسة فأعجبته. كما كان يعلم أن له عمة أيضا في الريف لم يرها قط، لكنه سمع والده يتحدث عنها، فلم يهتم بأن يسأله عنها. فما قيمة إن كان له أقارب هنا أو هناك؟ بماذا سيفيدونه وهم جميعا على ما يبدو من سكان الريف، لا أحد يفيد المرء إلا نفسه.

كان شقيقه الأصغر كثيرًا ما يتحدث معه في هذه المسائل فكان يقول له: «ركز على دروسك واترك حواديت النسوة هذه، ما لنا نحن بالخالات والعمات؟ ألم تسمع المثل القائل بأن «الأقارب عقارب» ؟ إن كل الناس عقارب فانتبه لنفسك أحسن وابحث عن مصلحتك». لكن أيمن كان لا يزال صغيرا في نظر شقيقه الأكبر لأنه يبحث عن العاطفة كالأطفال وتشغله أمور لا قيمة لها في الحياة.

كان عبد الصمد سعيدًا بأنه ملأ الاستمارات الخاصة باستخراج بطاقته الشخصية التي كانت تعني له الكثير. هي نقطة تحول في حياته، فمِن اليوم

هو كيان مستقل وليس تابعًا لأحد، والبطاقة هي رمز هذا الاستقلال وإثبات رجولته. الآن يستطيع أن يعمل دون أن يطلب منه أحد موافقة من والده، وإذا وجد العمل الذي يمكن لراتبه أن يلبي احتياجاته قد يتمكن أيضا من أن يترك البيت ويبدأ حياة مستقلة.

في المدرسة أصبح هذا الموضوع هو حديث المدرسين بعد أن ذهب أيمن في سذاجته التي كانت تثير عبد الصمد، ليحكي لمدرسة الحساب أبلة فاطمة التي كانت تعطف عليه، قصة اكتشافه أن أمه ليست أمه، وأن له أمًّا أخرى ماتت. ظل المدرسون يتحدثون طوال اليوم في هذا الموضوع ويسألون كلًّا من أيمن وعبدالصمد عن أمهما وقصتها، فأخذ عبد الصمد أخاه الأصغر جانبًا في الفسحة وأمسكه من صدر قميصه وهو يتوعده: «إذا لم تكن ستُخرس فمك فسأضربك حتى أكسر فكك. ما لهم المدرسون بهذه الحكايات». وتطور النقاش بين الشقيقين، فقال له أيمن: «اتركني ولا شأن لك بي، أنا حر أقول ما أريد». وتعالت أصواتهما وبدءا يتشابكان بالأيدي فسمعتهما أبلة فاطمة من نافذة حجرة المدرسين فنادتهما ونهرت عبد الصمد على فعلته قائلة: «أليس لديك إحساس؟» فقال لها: «وما دخل الإحساس في هذا؟» قالت: «عجبي عليك أنت وشقيقك، إنكما مختلفان اختلاف الأبيض والأسود. ألم تكتشف بعد طول هذه السنين أن لك أمًّا غير من كنت تتصور أنها أمك؟» قال: «وما قيمة هذا؟ لقد ماتت منذ سنين وانتهى الأمر».

لكن بالنسبة لأيمن لم ينته الأمر. لم يفاتح شقيقه الأكبر ثانية في هذا الموضوع، لكنه ظل يؤرقه سنوات طويلة مقبلة.

(3)

الدكتور أشرف

لابد أنها غفت لحظات، فحين مرت المضيفة تقدم لها قائمة الطعام انتفضت فزعًا. كانت تفزع كلما أيقظها أحد. لا تدري لماذا. قرأت ذات مرة أنه دليل على شعور دفين بعدم الأمان. لكن ذلك لا ينطبق عليها، فحياتها آمنة ومستقرة إلى أبعد الحدود. بل ربما كانت آفة حياتها هي ذلك الاستقرار المميت الذي يكاد يفقد حياتها كل طعم ولون.

نظرت إلى قائمة الطعام بلا اهتمام فتراقصت الأحرف أمام عينيها اللتين أوقظتا على حين غرة. نظر جارها إلى القائمة وقال للمضيفة: «قائمة عظيمة! كأننا في مطعم خمس نجوم!». همت المضيفة تفتح لها منضدة الطعام فأشارت لها ألا تفعل. قطبت المضيفة حاجبيها الرفيعين المرسومين بالوشم وهي تقول: «ألن تتناولي الطعام؟». قالت: «لا. شكرًا» فأصيبت المضيفة بخيبة أمل مصطنعة وسألتها: «ألا يعجبك أكلنا؟» وكأنها هي التي قامت بطهيه. ردت عليها: «لدي بعض القراءات التي يجب أن أنتهي منها قبل الوصول إلى روما». كانت تلك الجملة موجهة للمضيفة ولجارها الذي شعرت أنه يتحين الفرصة للدخول في حديث لم تكن تريده. كانت كلما جلس راكب غريب إلى جوارها استعانت عليه بالقراءة حتى لا تترك له فرصة ينفذ منها بحديثه.

فتحت كتالوجاتها وأخذت تتمعن في صفحاتها دون أن تقرأ، بينما انشغلت المضيفة بإعداد مائدة جارها، ثم انشغل هو بالأكل فحلت دقائق من الصمت تمنت أن تمتد بقية الرحلة. لكن ما إن انصرفت المضيفة حتى جاءها مضيف آخر يلبس ما يشبه بزة عسكرية كتلك التي كان يرتديها الضابط الذي تحدث إلى زوجها في التليفون. قدم لها نفسه قائلًا: «أنا كابتن محمد محيي رئيس طاقم الضيافة». ردت في اقتضاب: «أهلًا وسهلًا». قال: «يبدو أن ضحى هانم تريد رفتنا جميعًا» لم تفهم. نظرت إليه دون أن تتكلم. قال: «مدام ضحى الكناني حرم مدحت بك الصفتي.. يعني شخصية VIP على أعلى مستوى والتوصية سبقتك من رئيس مجلس الإدارة ومن أمانة الحزب». ماذا يريد هذا الثرثار؟ «إن رفضك لطعامنا سيعرضنا للمساءلة وربما التحقيق الذي قد ينتهي بفصلنا من العمل»، ثم ابتسم ابتسامة عريضة متصورًا أنه نطق بشيء ذكي أو طريف. كررت عليه ما قالته للمضيفة عن القراءة وزادت: «ثم إن لي نظامًا غذائيًا خاصًا لا أحيد عنه». رد الرجل في أسى: «لم يخطرونا بذلك وإلا أعددنا لك ما تريدين». قالت: «لا يهم، أنا لا أتناول غدائي قبل الثالثة على أية حال».

انصرف الرجل حزينًا بينما انفتح جارها في حديث لم يتوقف إلا مع هبوط الطائرة إلى مطار فيومتشينو بروما. قال لها: «يا لها من مصادفة غريبة أن أجد جارتي في الطائرة هي غريمتي في السياسة». ابتسمت نصف ابتسامة وهي تسأل نفسها حول مقصده.

استأذنها أن تعطيه الجريدة التي أخذتها من المضيفة إن كانت قد انتهت منها. لم تكن قد قرأتها لكنها ناولتها له في صمت، متمنية أن ينشغل بقراءتها. لكنه أخذ يشرح لها أنه أدلى للجريدة بحديث صحفي وأنه يريد أن يتحقق

من أنهم نشروا أقواله بدقة. لم تعلق. قلَّب صفحات الجريدة بسرعة إلى أن وصل إلى الصفحة التي بها الحديث فقال: «آه ها هو». نظرت بطرف عينيها فوجدت صورة كبيرة لجارها بلحيته السوداء وتحتها عنوان كبير يقول: «الدكتور أشرف الزيني يتوعد الحكومة: إما الاستجابة لمطالب الجماهير أو توقع الطوفان!».

صمت لحظات وهو يقرأ الحديث ثم صاح: «لقد حذفوا أهم جملة في الحديث، ويسمون أنفسهم صحافة معارضة. إن لكل جريدة «أجندتها» الخاصة ولا أحد يهتم بالصالح العام».

نظر إليها وكأنه ينتظر تعليقًا على كلامه. قالت: «آسفة. أنا لا أتابع صحف المعارضة». ابتسم وهو يقول: «آه بالطبع فأنتِ لابد تقرأين صحف الحزب الحاكم فقط».

ياللوقاحة! احتفظت بهدوئها وقالت: «الحقيقة أنني لا دخل لي بالسياسة ولا بالأحزاب، ولا أقرأ أي صحف». واصل حديثه بشكل طبيعي: «أما أنا فمحكوم عليَّ أن أتعامل مع الصحف جميعًا». قالت لنفسها: وأنا محكوم عليَّ أن أتعامل معك على ما يبدو. أشاحت بوجهها إلى النافذة حتى تضع حدًّا لهذا الحديث العبثي بين زوجة أحد أكبر قيادات الحزب الحاكم وواحد يبدو أنه من أكثر زعماء المعارضة وقاحة. لكنه واصل حديثه قائلًا: «لو كانت المشكلة هي الصحافة لهان الأمر، لكن الحقيقة أن البلد كلها فاسدة. كل من فيها له أهدافه الخاصة ولا أحد يهتم بالصالح العام».

بدأ صبرها ينفد.. قالت: «قلت لك إنني لا أهتم بالصحافة ولا بالسياسة». كان قد انتهى من تصفح الجريدة التي نشرت حديثه فأعادها لها قائلًا: «شكرًا على الجريدة التي لا تقرأينها، مع العلم بأنه ليس هناك من لا يهتم بالسياسة».

ثم نهض متجهًا إلى دورة المياه. زفرت في ضجر متمنية أن يكون ذلك هو آخر حديث بينها وبين ذلك الراكب المفروض عليها في هذه الرحلة. يبدو أن جميع رجال السياسة يفتقرون للكياسة والذوق، فأعضاء الحزب الحاكم الذين كانت تلقاهم في بعض المناسبات الرسمية مع زوجها لا يختلفون كثيرًا عن هذا المعارض. لهذا السبب كانت تمتنع - كلما استطاعت - عن حضور تلك المناسبات التي كانت تصيبها بالسأم. ما لها هي بحديث صحفي أدلى به ذلك المعارض ذو اللحية الكثيفة والرائحة المنفرة؟ ماذا عساه قال في ذلك الحديث؟ الكلام في السياسة كله مكرر ومعاد سواء كلام الحكومة أو المعارضة. مدت يدها وأخذت الجريدة التي نشرت الحديث. وجدت إشارة في قلب الصفحة الأولى تحمل صورته وتحتها عنوان كبير: «قطب المعارضة القوي الدكتور أشرف الزيني في أخطر حديث يدلي به». ياللمبالغة! إذا كان هذا هو أخطر حديث فلابد أن الحكومة قد سقطت اليوم بعد نشر الحديث. قلبت صفحات الجريدة إلى أن وصلت إلى الحديث الذي نشرته الجريدة على صفحة كاملة. نظرت إلى صور الرجل.. أهو صادق فيما يقول؟ كانت تعرف من معاشرتها لزوجها أن عالم السياسة كله نصب وادعاء. كان له وجه طفولي بريء رغم كثافة لحيته السوداء. لم تكن لحية إسلامية، وإنما هي أقرب إلى اللحية الأوروبية التي يطلقها العلماء وأساتذة الجامعات. كان في يده في إحدى الصور غليون أضفى عليه سمة الباحث الأكاديمي الجاد.

كانت الصور قوية تنبض بالحياة. تذكرت تلك الرائحة التي أعلن بها عن نفسه عند بداية صعوده للطائرة وهو يتصبب عرقًا، لابد أن تكييف الهواء داخل الطائرة جففه. رفعت عينيها عن الجريدة فإذا بصاحب هذه الصور يقف أمامها: «ضبطك متلبسة! ألم أقل لكِ إنه لا يوجد أحد لا يهتم بالسياسة؟ أرسطو قال منذ أكثر من ألفي سنة إن الإنسان حيوان سياسي».

ارتسمت على وجهه ابتسامة ودودة فبدا وكأنه يتحدث إلى صديق حميم لا كلفة بينهما، لكن حديثه أربكها فردت بسرعة: «لم يكن اهتمامي بالحديث سياسيًا كنت أنظر فقط إلى الصور».

ضحك وهو يعود للجلوس في مكانه إلى جوارها، وقال: «كما يفعل الأطفال؟». قررت أن ترد على وقاحته بمثلها: «الحقيقة أنني لم أكن أتأمل جمال الصور كنت أحاول أن أتبين شخصية صاحبها». لكن وقاحته لم يكن لها حدود. قال: «إذن كان اهتمامك شخصيًا وليس سياسيًا». احمر وجهها خجلا وأرادت أن تقول له: من أنت حتى أهتم بشخصك؟ لكنها كبحت جماحها مرة أخرى: «إن اهتمامي كان بالفعل شخصيًا؛ أردت أن أعرف إن كان أقطاب المعارضة كما يسمونهم يتسمون بالصدق أم أنهم جميعًا كاذبون». قال: «أقول لكِ صراحة إن معظمهم كاذبون، وهم في ذلك لا يختلفون كثيرًا عن رجال الحكومة». نظرت إليه مباشرة لأول مرة وقالت: «وأنت من أي نوع؟» فرد بتلقائية : «أحرص على أن أكون صادقًا مع نفسي ، لا أقول ولا أفعل إلا ما أؤمن به، وهذا يسبب لي الكثير من المشاكل حتى مع أعواني من السياسيين. لكن هدفي ليس كسبَ ودِّ رجال السياسة وإنما خدمة الأهداف التي أعمل من أجلها، والحقيقة أن الجماهير أكثر نضجًا من السياسيين فهي تعرف دائمًا الصادق من الكاذب».

قررت أن تلجأ لسلاح آخر هو التهكم. قالت: «وما هي يا ترى تلك الأهداف التي تعمل من أجلها؟ كرسي الوزارة؟ الشهرة؟ أم الجهاد في سبيل الله؟». قال دون أن يفقد روحه البشوشة: «ولم كل ذلك؟ أنا أتطلع فقط إلى إرساء بعض المبادئ التي بدونها لا تكون هناك ديمقراطية ولا حكم للشعب». قاطعته: «مثل ماذا؟» أكمل حديثه وكأنها لم تقاطعه: «مثل

القضاء على الفساد. مثل إرساء مبدأ تداول السلطة. مثل حظر تزوير إرادة الناخبين. وهي كلها مبادئ أولية في أي نظام سياسي محترم. فأنا أنادي بما ينادي به الناس. ليست لي أيديولوچية شيوعية ولا إسلامية. ما أريده ويريده الناس هو إصلاح نظامنا السياسي وبعد ذلك فلتأت الحكومة التي تنجح في الانتخابات سواء أكانت يسارية أم يمينية لا يهم. إنهم يتحدثون ليل نهار عن الإصلاح الاقتصادي ولو أنهم بذلوا بعض ذلك الجهد في الإصلاح السياسي لكان حالنا غير الحال. قولي لي بربك: هل يعقل أن يظل حزب واحد يحكم البلاد طول العمر؟».

ندمت أنها فتحت على نفسها ذلك الباب، فآخر ما كانت تريده هو تلك المحاضرة. سكتت ولم ترد علها تضع حدًّا لهذا الحديث الذي لم يكن من الممكن أن يصل إلى اتفاق.

«طبعًا أنتِ لن توافقيني على ما قلت، لكنكِ طلبت مني أن أحدد لك أهدافي». وجدت أن المواقع قد انقلبت مرة أخرى وأنها وضعت من جديد في موقع الدفاع. قالت: «كون زوجي ينتمي إلى الحزب الحاكم لا يعني بالضرورة أنني أوافق على كل سياسات الحزب». أحست أنها استسلمت أكثر من اللازم، فأضافت: «لكنني مع ذلك لا ثقة لي في المعارضة». قال: «وهل تعرفين أحدا من المعارضة؟». قالت: «لم أتعرف إليهم شخصيًّا لكنني أشاهد ما تفعله المعارضة في البلد وأجد فيه انتهازية سياسية واضحة». قال: «ماذا تقصدين؟». قالت: «أقصد تهييج الناس، واستغلال معاناتهم، ودفعهم إلى المظاهرات والاعتصامات ليس لغرض إلا إسقاط الحكومة والقفز إلى مقاعد الحكم».

زالت عن وجهه ابتسامة الاستخفاف التي لازمته منذ بداية الحديث وبدا جادًّا وهو يقول: «نحن لم نتسبب في معاناة الناس، الحكومة هي التي تسببت فيها. إن ما فعلنا نحن هو أننا أعطينا صوتًا لمن لم يكن لهم صوت. كل ما فعلناه هو أننا أذَّنَّا للصلاح والكفاح من أجل الحرية والديمقراطية. وصدقيني لا أحد يستطيع أن يدفع الناس إلى الخروج في المظاهرات والاصطدام بقوات الأمن والتعرض للضرب أو الاعتقال، إن لم يكن الناس قد طفح بهم الكيل».

بدت في عينيه نظرة الصدق التي لاحظتها في بعض صوره بالجريدة، لكنها لم تشأ أن تظهر أي علامات للاستسلام. قالت: «لا يبدو أننا سنتفق في هذا الموضوع». قال: «ليس بالضرورة أن نتفق إن ما ينقصنا في هذا البلد هو ثقافة الاختلاف». قررت أن تنقل الحديث إلى مستوى آخر فابتسمت وهي تقول: «حين تقول «في هذا البلد» فأي بلد تقصد؟ لابد أننا الآن فوق جزيرة مالطا». ضحك، وهو يقول: «الكلام قد ينطبق أيضًا على مالطا». فردت بسرعة: «إذا لتؤذِّن بها هي الأخرى».

(4)

حســن

مضت السيارة «البيجو» في طريقها إلى طنطا بعد فترة توقف تالية زود فيها السائق المحرك بالماء الذي كان قد تبخر على ما يبدو أثناء السير.

تذكر أيمن وهو يتابع السيارة كيف بدأت هذه الرحلة من بيت صديقه حسن..

في إحدى الليالي بعد أن انتهيا من استذكار دروسهما جلس الصديقان أيمن الحمزاوي وحسن الليثي في شرفة منزل حسن حتى يستطيعا التدخين دون أن يشعر بهما أهل البيت، وحين تطرق حديثهما إلى الموضوع الذي كان يؤرق أيمن قال له حسن: «عليك أن تنسى هذا الموضوع، إن من ماتوا لا يعودون، فلا تعذب نفسك بلا طائل». فقال له أيمن: «إن ما يعذبني هو أنني لا أعرف شيئا عن أمي، لو أنني عرفت من هي لاسترحت، لكني لا أعرف عنها إلا اسمها، ووالدي لا يريد أن يقول لي شيئًا، إنني أكاد أجزم أنه يخبئ عني أشياء كثيرة. إنك لن تعرف يا حسن ما أشعر به أبدًا لأنك تعرف كل شيء عن أسرتك ولأنك لم تفقد أحدًا منهم. إنني أدعو الله أن يمد لك في عمرهم جميعاً ويجنبك هذا الشعور المؤلم بأنك فقدت شيئًا غاليا في حياتك. هو شعور بالضياع.. بأنك لا تعرف من أنت..».

وسكت أيمن قليلًا وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته ثم عاد يقول: «لو أنني أعرف قبرها .. لو أنني أعرف أقاربها لسألتهم عنها لأعرف متى ماتت وكيف ماتت.. ربما كان لديهم صور لها .. إنني لا أعرف شكلها .. ولا أعرف كيف لا يوجد لدى أبي أية صورة لها .. ألم يأخذا صورة لزفافهما أو لأي مناسبة أخرى جمعتهما؟ أريد أن أعرف شكلها لابد أن هناك في وجهي ما يشبهها، ربما كانت هناك قسمات من وجهها لا تزال تعيش فيَّ وأنا لا أعرف. ربما كان في طباعي ما أخذته عنها. إنني امتداد لها مثلما أنا امتداد لأبي، لكنني لا أعرفها، ولا أعرف أي شيء عنها. كأني لا أعرف نفسي».

كان أيمن يهوى القراءة، وكان اسم الأم في أي كتاب أو مقال يثير في نفسه الشجون. زار في أحد الأيام معرض الكتاب مع مجموعة من زملائه بالمعهد، فوجد في أحد أقسام الكتب المستعملة رخيصة الثمن كتابًا يحمل اسم «الأم» فاشتراه على الفور. حين عاد إلى البيت وجده يحوي روايتين لكاتبة إيطالية لم يكن قد سمع بها اسمها «جراتسيا ديليدا» حصلت على جائزة نوبل عام 1926 . كان موضوع الروايتين هو علاقة الأم والابن.

بعد ذلك اشترى من سور الأزبكية رواية أخرى باسم «الأم» للأديب الروسي مكسم جوركي، ومسرحية لبريخت بعنوان «الأم شجاعة» لكنه لم ينفعل بها كثيرا. من خلال الروايات كان يعيش علاقة الابن بالأم، تلك العلاقة التي لم يعشها في حياته.

سكت حسن متأثرًا بحديث صديقه. صمت برهة احترامًا لتلك الدمعة التي لمحها تترقرق في عينيه وسط أضواء الشارع وهما جلوس في الشرفة المظلمة. أخذ حسن النفس الأخير من سيجارته ثم قال لأيمن وهو يطفئ السيجارة على حافة الشرفة ويقذف بها إلى الشارع: «ألم تقل لي إن لديك

الاسم الكامل لوالدتك ؟» قال له أيمن: «إني أحفظه عن ظهر قلب منذ كتبه والدي أمامي لعبد الصمد في أوراق بطاقته الشخصية قبل ما يزيد على ست سنوات» ، فقال له صديقه: «قد تستطيع والدتي مساعدتك في الوصول إلى أهل أمك عن طريق السجلات المدنية».

تهلل وجه أيمن فتراجعت دمعته مفسحة الطريق لتلك الابتسامة الجميلة التي كانت تميز وجهه.

كان حسن الليثي هو صديقه المقرب في معهد الدراسات التعاونية الذي التحق به بعد تخرجه في المدرسة، وكان كل منهما محل ثقة الآخر. كان حسن يحكي لأيمن عن حبه لهالة ابنة الأستاذ جرجس عبد الشهيد جارهم في الشارع بحي دار السلام، وكان أيمن يحكي لحسن عن حبه لسلوى العليمي زميلتهما بالمعهد. كان حسن شابًا طيب القلب وكثيرًا ما كان يدعو أيمن إلى منزله ليذاكرا دروسهما سويا، وفي بعض الأحيان كان أيمن يبيت عنده، وكانت الحاجة حكمت والدة حسن سيدة بدينة تعمل بالسجلات المدنية وتعطف على أيمن، فكانت كلما عرفت من حسن أن أيمن سيأتي معه إلى المنزل أعدت له أطباق الطعام التي كان يحبها.

في تلك الليلة أحس أيمن أن حسن فتح له طريقًا جديدًا يخرجه من تلك الدوامة التي عاش فيها طويلًا. لم يتركه إلا بعد أنْ وعده بأن يفاتح والدته في الأمر ليعرف إن كانت تستطيع بالفعل مساعدته في أن يستدل على أمه.

نزل من منزل صديقه وهو يسأل نفسه إن كانت العلاقة التي كثيرًا ما قرأ عنها بين الأم والابن يمكن أن تصبح أخيرًا حقيقة يعيشها؟

(5)

السحب ترحل في الربيع

كانت ضحى تتصور أن مقابلة أشرف الزيني في الطائرة حدث عارض سينتهي بانتهاء الرحلة وافتراقهما كل في طريقه، هي إلى ميلانو للمشاركة في صالون الأزياء السنوي وهو إلى پالرمو بصقلية لحضور المؤتمر الدولي لمنظمات المجتمع المدني. لكن الأقدار كانت تدخر لها ما لم تكن تتوقعه أو تتصوره.

الثلاث ساعات ونصف الساعة التي استغرقتها رحلة الطائرة من القاهرة إلى روما تركت في نفسها انطباعًا كان سيظل معها بقية العمر. لم يحدث أن قابلت أحدًا مثل أشرف الزيني من قبل. وجدت فيه ما لم تكن تعرفه في رجال السياسة، ثم إنه أحيا في داخلها أشياء لم تكن تتخيل أنها لا تزال موجودة.

حدثها عن حياته وكيف أنه لم يتزوج حتى الآن بسبب اهتمامه بالشأن العام، فتذكرت هي حياتها وما آلت إليه. قال لها إن والدته كانت ابنة إحدى رفيقات هدى الشعراوي اللاتي ناضلن معها إبان ثورة 1919، وأنها خرجت معها في المظاهرة الشهيرة التي خلعن فيها اليشمك رمز الهيمنة العثمانية والدخيل على المرأة المصرية. وقال إن والده توفي وهو طفل وأن والدته ربته على حب الوطن والعمل من أجل الناس. دخل كلية الهندسة وكان زعيمًا للطلبة فاعتقلته قوات الأمن بالجامعة في عهد السادات. لكنه اجتهد

في دراسته وتخرج بامتياز؛ مما فتح له طريق التعيين بهيئة التدريس فظل قريبًا من الطلبة في السن التي يتمردون فيها على الواقع ويتطلعون إلى غد أفضل، فكان يعمل دائمًا على ترشيد حركتهم وتوجيهها إلى العمل البنَّاء من خلال الانضمام إلى التنظيمات الشعبية المطالبة بالتغيير بدلًا من تبديد طاقاتهم في الإضراب عن الدراسة أو الاكتفاء بالخروج في المظاهرات.

وهكذا تحول الدكتور أشرف الزيني المعماري الكبير إلى زعيم للطلبة، ثم أحد أهم زعماء المجتمع المدني حين أسس حركة «الأفق الجديد» التي ضمت أعدادًا كبيرة من المطالبين بإصلاح أوضاع البلاد، فكتبت عنها الصحف المحلية والدولية وسرعان ما نال مكانة مرموقة بين منظمات المجتمع المدني الدولية.

كم كانت حياته مختلفة عن حياتها.. كان أشرف الزيني يبدو سعيدًا في حياته، مؤمنًا بما يفعل. استمعت إليه في صمت، وبدأ يزول عنها تدريجيًا الشعور بأن جارها هذا الجالس إلى جوارها في الطائرة، والذي لم تكن تعرفه منذ سويعات قليلة يتطفل عليها أو يقحم نفسه في حياتها. كان حديثه صادقًا لا ينم عن هدف غير التواصل الإنساني الطبيعي.

يبدو أن التحليق في الجو يحرر الإنسان مما قد يكون له من تحفظ على الأرض، أو ربما هو الوجود في الأسر مع شخص آخر بعيدًا عن الدنيا. كالسجين حين يجد أن زميله في الزنزانة هو أقرب الناس إليه، فيحكي له عن أدق تفاصيل حياته رغم ما قد يوجد بينهما من حواجز خارج السجن.

نظرت ضحى من النافذة إلى السحب المتناثرة تحت الطائرة والتي بدأت تنقشع، ترحل مع قدوم الربيع إلى مكان آخر من العالم، حيث لايزال هناك شتاء. بدا شكلها أشبه بحلوى غزل البنات التي كانت وهي طفلة تأخذ

منها الأبيض الذي يشبه هذا السحاب وتترك ذا اللون الوردي للبنات الأخريات.. تذكرت كيف أن لحظات السعادة في حياتها كانت دائماً قليلة بل كانت هشة مثل غزل البنات، ومثل هذه السحب الطافية تحت الطائرة.

أعاد إليها حديث أشرف الزيني عن إضرابه عن الزواج ذكريات سنوات صدامها مع والدتها وتمردها على سلطتها المستبدة. كانت والدتها التي توفيت منذ بضع سنوات هي علية هانم حفظي ابنة وزير الأشغال الأسبق طلعت باشا حفظي. كانت سيدة شديدة المراس كلمتها هي النافذة. هي التي كانت تتخذ القرارات في كل ما يتعلق بالأسرة، وحين كبر الأولاد كانت هي التي اتخذت القرارات الخاصة بزواجهم. وقد استسلم لها الجميع دون مقاومة إلا ضحى. الأب الدكتور علي الكناني الذي توفي بعدها بسنتين اعتبر أن اختصاصاته تنحصر في دائرة عمله وكيلًا بوزارة العدل، وأن أمور البيت والأولاد من اختصاص زوجته، ومع الوقت ألحق العزبة هي الأخرى بالبيت، فترك زوجته تفعل بها ما تشاء.

والحقيقة أنه لم يجد ما يعترض عليه في إدارتها الحازمة. كانت تستقبل الفلاحين في المنزل لتراجع معهم الحسابات. وفي بعض الأحيان كانت تسافر بنفسها - إذا اقتضى الأمر - إلى الصعيد؛ حيث ما تبقى من مئات الأفدنة المملوكة لزوجها بعد ما صادرته الثورة من أطيان العائلة.

أما شقيق ضحى الأكبر، فهو طلعت الذي أسمته الأم على اسم جده، بينما أسماها والدها ضحى؛ لأنها ولدت في ساعات الصبح الأخيرة، فكان ميلادها إيذانا باعتلاء شمس الظهر قبة السماء. كان طلعت متيماً بوالدته، لا يفعل إلا ما تقوله له. كان كثيرًا ما يحاول نصرة شقيقته إلى أن تنهره أمه فيمتثل لأمرها.

تعلمت ضحى في مدارس الراهبات الفرنسية؛ مما كان يشكل قيدًا على حياتها. أما خارج المدرسة فلم يكن مسموحًا لها أن تخرج مع أصدقائها إلى النادي كسائر البنات، وكان عليها أن تقدم لوالدتها شجرة العائلة لكل صديقة تريد زيارتها، والصديقات اللاتي كن يحضرن لزيارتها في المنزل كانت الأم تتكفل باستجوابهن حول أصلهن وفصلهن مما كان يسبب لضحى حرجًا شديدًا. لكنها كانت تعرف أنه بدون كشف الهيئة هذا لن تتمكن من التزاور مع أحد.

تحملت ذلك الوضع سنوات إلى أن فاتحتها أمها وهي في السنة الأولى بالجامعة في ضرورة زواجها. لم تستطع الخضوع لأمها أكثر من ذلك. قبلت أن تتحكم أمها في حياتها الحاضرة مثلما تتحكم في حياة بقية العائلة، لكنها لن تقبل أن تتحكم في مستقبلها أيضًا. لقد رضخت للأم في الحاضر لأنها كانت تعرف أن هناك مستقبلًا ستتحرر فيه من كل القيود التي كانت تكبل حياتها الآن في البيت وفي المدرسة وتعيش حياتها كما تريد.

كانت الحياة قد بدأت تتفتح أمامها في السنة الأولى بكلية الآداب قسم اللغة الفرنسية؛حيث أصبحت الجامعة تمثل لها الانعتاق من حزم الراهبات في المدرسة ومن صرامة الأم في البيت. فكيف تترك ذلك وتدخل سجنًا آخر هو الزواج الذي كانت تريده لها الأم؟ كانت علية هانم قد اختارت لها زوجها كما اختارت لأخيها زوجته ابنة أمين صبري سفير مصر الأسبق في ألمانيا. أما زوجها هي فكان مدحت الصفتي ابن شقيق عبد الرحمن بك الصفتي أمين عام الحزب الحاكم والذي ينتظره - حسبما قالت لها أمها - مستقبل كبير في ظل رعاية عمه له.

لم تكن قد قابلت ذلك العريس الذي قدمته إحدى صديقات الأم للأسرة، لكنها رفضته من حيث المبدأ. لن تتزوج الآن. تريد أن تعيش حياتها في الجامعة مثل بقية البنات ولن تتزوج بهذه الطريقة التي كانت تشاهدها في الأفلام المصرية القديمة.

رفضت مقابلة العريس حين جاء لزيارتهم، وأضربت عن الطعام حين أصرت أمها على الزواج. حبست نفسها في غرفتها ثلاثة أيام. قاطعت الأسرة كلها وامتنعت عن الذهاب للامتحان فضاع منها جهدها الدراسي ورسبت في أول سنة لها بالجامعة.

ومضت أشهر الصيف طويلة مضطربة في شد وجذب بين الأم وابنتها. كانت صديقتها عفت تدفعها لقبول العريس والتطلع لما ستوفره لها هذه الزيجة من حياة رغدة، بينما كانت مشيرة تشجعها على إعمال إرادتها واختيار شريك حياتها بنفسها. لكن ما إن أقبل الخريف حتى كانت الصحف والمجلات تنشر أخبار وصور خطبتها إلى مدحت الصفتي. ومع بداية الشتاء زفت في حفل كبير إلى الزوج الذي اختارته لها أمها، وكان عبدالرحمن بك الصفتي سكرتير عام الحزب ووزير الشئون البرلمانية شاهد عقد قرانها.

حرمت من الإنجاب كما حرمت من الحياة التي كانت تتطلع إليها. أجرت كل الفحوص الممكنة في مصر وفي الخارج وكانت النتيجة دائماً تشير إلى أن كل شيء طبيعي لديها ولدى زوجها. لم تعد إلى الجامعة ثانية بعد الزواج. كان مدحت الصفتي قد وعدها بأن يتركها تكمل دراستها لكنه شغلها بدلًا من ذلك في حياة اجتماعية مزدحمة سرعان ما سئمتها فبدأت تشغل نفسها بدراسة تصميم الأزياء بالمراسلة. كانت تذهب مرة واحدة كل سنة إلى باريس لتجتاز بعض الاختبارات، وبعد ثلاث سنوات حصلت

على شهادة من معهد الأزياء الفرنسي، وزارت عدة مرات المقر الشهير لبيت أزياء كريستيان ديور في شارع مونتيني بباريس. كما التحقت بدورة صيفية في معهد سانت مارتن سكول بلندن.

أقامت مشغلًا لحياكة الأزياء التي كانت تقوم بتصميمها وسرعان ما لاقت أزياؤها انتشارًا واسعًا وبدأت تصمم الأزياء لبعض المحال المصرية.

إلا أنها كانت تشعر طوال الوقت بأن تلك ليست الحياة التي كانت تريدها أو تحلم بها في صباها. كثيرًا ما سألتها صديقتها عفت: «وما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟». أما مشيرة فكانت تقول لها إن الإنسان دائم البحث عن نفسه. البعض قد يجد نفسه في مرحلة متقدمة من حياته، والبعض الآخر قد يجدها في مرحلة متأخرة. المهم ألا يقنع الإنسان بأي حياة تصادفه، أو تفرض عليه».

على أن حديث أشرف الزيني أخذها إلى عالم آخر حتى نسيت حياتها مثلما ينسى الإنسان نفسه وهو يشاهد فيلمًا سينمائيًّا يأخذه إلى دنيا لا علاقة لها بحياته اليومية. وكأن هذه الطائرة التي دخلتها هي دار الخيال، وأشرف الزيني هو راوي ذلك الفيلم الذي أخذها بعيدا عن الحياة التي تعيشها.

نظرت مرة أخرى من النافذة، فوجدت نفسها بعيدة تمامًا عن كل شيء. لم تستطع تبين أية تفاصيل للأرض وتضاريسها. لكن الطائرة كانت ستعود حتمًا إن آجلًا أو عاجلًا لملاقاة الأرض رغم طول المسافة التي قطعتها. خشيت ضحى من هبوط الطائرة. كانت ستعيدها مرة أخرى من الخيال إلى الواقع.

قال أشرف: «هذه أول مرة أزور فيها إيطاليا. أهي مثل فرنسا؟» قالت: «إيطاليا ليس لها مثل. روما بالذات لا تشبه أي مدينة أخرى في العالم».

استرجعت صدى كلماتها في أذنيها فارتاحت قليلًا وضاعت خشيتها من الهبوط إلى المدينة التي لا تشبه تلك التي أقلعت منها.

نزلت الطائرة على الممر في انسياب جميل لم تعتده في سفراتها السابقة. خيل إليها أن الطائرة تسبح فوق الماء إلى أن توقفت. نهض الدكتور أشرف من مقعده ليحضر حقيبته التي كان قد وضعها أعلى المقاعد. قال: «ألديك أية أمتعة فوق؟». قالت: «أمتعتي هنا هي هذه الكتالوجات. سأضيف إليها فقط الجريدة التي أعطتها لي المضيفة». قال: «تصورت أنكِ قرأتها». قالت: «قلت لك إنني تفرجت فقط على الصور. لكنني الآن سأقرأها بالتأكيد».

(6)

الحاجة حكمت

استيقظ أيمن قبل موعده. حاول النوم مرة أخرى لكنه لم يستطع. بدأ يشعر بالقلق في فراشه. نهض وارتدى ملابسه بلا صوت حتى لا يوقظ شقيقه وغادر البيت في هدوء. أين سيذهب في تلك الساعة المبكرة؟ كان متوترًا بعض الشيء. صعد إلى سطح المنزل علَّ الهواء يهدئه قليلا. كان الوقت فجرًا. نظر إلى الأفق البعيد. يالها من لحظة فاصلة بين الليل والنهار. كأنها وقفة الصمت بين الشهيق والزفير .. بين حياة مضت وأخرى مقبلة.

ظل قابعًا في مكانه يتابع بزوغ الفجر من قلب الظلام، إلى أن انتصر ضياء النهار على ظلمة الليل، فنزل أيمن إلى الشارع وقد قل توتره وبدأ يشعر بالثقة.

توجه إلى مقابلة الحاجة حكمت في المكتب الرئيسي للسجلات المدنية المصرية. كان موعده معها في العاشرة صباحًا لكنه نزل مبكرًا من المنزل. لم يستطع الانتظار. ذهب أولا إلى الحاج عبد المولى البقال وكلم سلوى في التليفون ليقول لها إن تليفونه المحمول لم يعد معه وأنه لن يستطيع الاتصال بها. قالت: «لدي شيء مهم أريد أن أحدثك فيه حين نتقابل في المعهد» . رد عليها: «أنا لن آتي اليوم إلى المعهد. لدي موعد مهم جدًّا سأحكي لكِ عنه حين أراكِ».

وصل أيمن إلى مبنى السجلات المدنية قبل الموعد الذي حددته له الحاجة حكمت بساعة تقريبًا. انتظر تحت المبنى وهو ينتفض من اللهفة. مشى قليلًا في الشوارع المجاورة وهو لا يعرف ماذا يفعل بنفسه. بعد نصف الساعة لم يعد يطيق الانتظار صعد إلى الدور الثالث ـ كما أخبرته ـ وسأل عن مكتب الأستاذة حكمت عبد الوهاب وبمجرد أن دخل عليها اعتذر عن القدوم مبكرًا قائلا إن الطـرق كانت هادئة على غـير العادة، فقالت له: «لا عليك يا بني، اجلس وقل لي ماذا تشرب» ثم التفتت إلى زميلتها في المكتب، فقالت لها الزميلة: «أهو؟» فأومأت إليها في صمت أن نعم، فزادت لهفة أيمن وبدأ يشعر ببعض الاضطراب، لم يكن قد دخل مكتبًا حكوميًّا في حياته وها هو في هذا المكتب يشعر وكأنه في قسم الشرطة لا يعرف ماذا ينتظره. جاء عامل «البوفيه» فاعتذر عن شرب أي شيء بصوت فيه بعض الرجفة تمنى ألا تكون والدة صديقه قد لاحظتها، لكنها أصرت أن يشرب شيئا وطلبت من العامل أن يحضر له «عصير ليمون يروق دمه»، ثم وجهت حديثها لزميلتها وهي تقول: «إن أيمن مثل ابني تماما. هو وحسن واحد». أهي تريد أن تبرر لزميلتها لماذا ستطلعه على معلومات لا يعتقد أنها متاحة للعامة؟

ظلت زميلتها تنظر إليه مليًّا دون أن تنطق إلا بعبارة: «أهلًا وسهلًا»، ثم قالت له الحاجة حكمت :«كيف حالك يا بني، وكيف حال أسرتك؟». أي أسرة تقصد ألا تعرف أنه ليست لديه أسرة؟ أمه ليست أمه، وأخته ليست شقيقته إلا من الأب، وشقيقه له حياته الخاصة، ووالده لا يقول له الحقائق. قال في اقتضاب: «الحمد لله» وصمت في انتظار أن تطلعه والدة صديقه على المعلومات التي جاء من أجلها.

طالت اللحظات ودخل أحد الموظفين يحدث زميلتها ثم خرج، فقرر أن يقطع هذا الصمت.

اعتذر أيمن لوالدة صديقه عن أي إزعاج يمكن أن يكون قد سببه لها بسبب طلبه الذي حرص على ألا يذكره صراحة. ردت عليه على الفور قائلة إنه لا إزعاج على الإطلاق فهذا حقه، فشجعه هذا أن يسألها السؤال الذي كان يؤرقه: «هل وجدت أي شيء؟» قالت له أن يشرب الليمون الذي كان العامل يضعه على المنضدة الصغيرة التي أمامه.

سكت ثانيا وهو يشرب الليمون. شعر بأن الليمون قد زاد من اضطرابه ولم يهدئه. أم هو ذلك الصمت المخيف الذي يذكره بسكون غرفة الفئران المظلمة التي كانوا يخيفون فيها الطلبة في المدرسة عقابًا على عدم عمل الواجب؟ شرب باقي كوب الليمون بسرعة واستجمع شجاعته وهو يسأل الحاجة حكمت: «هل وجدت شهادة وفاة أمي؟ نظرت له في شفقة وهي تقول بنفس الشجاعة: «للأسف ليس هناك شهادة وفاة بهذا الاسم». أحس أيمن أنه فقد شيئًا ثانيًا بعدم الاستدلال على شهادة وفاة والدته، ليس فقط أنه فقد أمه، لكنه فقد أيضًا وسيلة الاستدلال عليها، لقد كان ألمه كبيرًا وهو يعرف أنه كانت له أم وماتت، والآن يبدو كأن لم يكن له أم على الإطلاق. شعر فجأة بضآلته.. بأنه غير موجود.. أو أنه لقيط لا هوية له.

قال للحاجة حكمت: «غير ممكن .. لابد أن لها شهادة وفاة بها اسم والدها ووالدتها أو مكان وفاتها»، فردت عليه وقد انتقل بعض حزنه إليها: «لقد بحثت بحثًا دقيقًا لكني لم أعثر على شيء. كانت المسألة صعبة للغاية فأنت لم تحضر لي تاريخ الوفاة الذي كان يمكن أن يسهل عليَّ الأمر، لكني بحثت بحثًا أبجديًا عن كل الأسماء التي تبدأ بحرف الألف إلى أن وجدت

اسم «آمنة»، وقد وجدت آلاف الشهادات لكن لم يكن من بينها اسم آمنة عبد الرحيم السعدي».

قال أيمن: «ربما ماتت في محافظة أخرى وسجلت هناك»، قالت له: «لقد بحثت في السجلات المركزية التي تضم جميع المحافظات» قال لها: «وكيف تفسرين ذلك؟» قالت:«والله يا بني لا أعرف».

فجأة صاحت زميلتها في المكتب: «ربما أن والدتك لم تمت. ربما لا تزال على قيد الحياة»، فازدادت ضربات قلب أيمن وكست وجهه نظرة شاردة كأنه على وشك الدخول إلى المجهول، وقال وكأنه يتشبث بالحقيقة الوحيدة التي يعرفها: «لكن والدي قال لي إنها توفيت». قالت له والدة صديقه: «لقد قال لك أيضًا إن زوجته الحالية هي أمك». رجع أيمن بظهره إلى الوراء ليتكئ على مسند الكرسي بعد أن شعر أنه غير قادر على صلب عوده وسكت لا يعرف ماذا يقول. أين الحقيقة؟ إن أمه ليست هي الشيء الوحيد الذي ضاع منه. لقد ضاعت الحقيقة ولم يعد يعرف شيئًا.

طيبت الحاجة حكمت من روعه وقالت في حنان الأم: «لا تقلق سأبحث لك في سجلات الأحياء. فقط أعطني بعض الوقت».

نزل أيمن من مكتب السجلات المدنية وساقاه لا تقويان على حمله، كاد يقع بسبب ركبتيه المرتعشتين فأمسك بيده حافة السلم إلى أن خرج إلى الشارع. كان اليوم غائماً لا شمس فيه فأحس بالغيوم تتكاثر فوق قلبه وروحه. لقد جاء إلى هذا المكان الكئيب متصورًا أنه سيخرج منه وقد وجد ضالته فخرج منه أكثر ضياعًا مما كان. كادت سيارة أجرة تصدمه وهو يعبر الطريق فصاح فيه السائق: «يا مسطول!» عاد مرة أخرى إلى الرصيف وجلس على حافة الطريق.

(7)

سلوى

كانت سلوى العليمي هي الصدر الحنون الذي يهون على أيمن حياته الخالية تمامًا من أي عطف أو حنان. كان موعده معها في حديقة الأسماك. انتظرها على باب الحديقة وهو يحمل في يده تذكرتين ابتاعهما لتوِّه من شباك الحديقة. حين أقبلت عليه سلوى بعد قليل بدت كالملاك بقوامها الممشوق وخطوتها الرشيقة. لم يرها بهذا الجمال من قبل. كانت قد تركت شعرها الكستنائي ينسدل على كتفها مُحيطًا وجهها الملائكي بإطار مخملي زاد من صفاء بشرتها. كانت ترتدي «بلوفر» لونه في زرقة السماء الصافية وفي شفافيتها وقد ارتسمت عليه فراشات بيضاء صغيرة ظلت تعلو وتهبط مع خطوات سلوى وهي مقبلة عليه كأنها طائرة في الهواء. أخذ يدها في يده ومضى بها إلى داخل الحديقة.

قال وهو ينظر إلى ردائها: «أرى أن اليرقات تحولت كلها إلى فراشات بيضاء تسبح في سمائك». ضحكت ولم ترد. كانت سلوى تهوى تربية دود القز، وكانت كثيرا ما تحكي لأيمن عن اليرقات الصغيرة وكيف تتحول إلى ديدان تغزل خيوط الحرير الجميلة فتصنع منها شرنقة رقيقة تخرج منها بعد ذلك الفراشات، وكان أيمن يقول لها إنها هي التي تغزل الحرير في حياته، ولولاها لتحولت الشرنقة التي يعيش فيها إلى سجن كئيب.

كان أيمن كثيرًا ما يدللها فيقول لها إنها فراشته البيضاء. «ولماذا البيضاء؟» سألته ذات مرة. قال: «لأن الفراشة البيضاء رمز البراءة والطهر والنقاء. هي الحقيقة المطلقة التي لا تتلون». ثم قال لها: «لقد قرأت ذات مرة أن الفراشات البيضاء كانت مقدسة في الحضارات القديمة، وأنه حتى القرن السابع عشر كان قتلها محرمًا في أيرلندا؛ حيث كانوا يؤمنون بأن كل طفل يموت في سن البراءة يتحول إلى فراشة بيضاء».

وقفا أمام أحد أحواض السمك داخل الجبلاية يتأملان انسياب الأسماك في الماء وكأنها في رقصة حالمة لا تعي ما حولها ولا ترى أعين من يراقبونها من البشر.

لم يكن قد ترك يدها منذ احتضنتها يده اليمنى على باب الحديقة. رفع يدها إلى فمه وقبلها. قالت بصوت خافت: «حبيبي!» فرد عليها: «أنتِ حبيبتي وأمي وأختي وفي يوم قريب زوجتي التي لن أفارقها أبداً».

احتضنته ولفه شعرها الكستنائي الكثيف حتى أحاطه من كل جانب، وكأنه شِباك رمتها عليه حتى لا يأخذه منها أحد. أحس بين ذراعيها بالحنان الذي يفتقده. قبّلها فتدافعت الأسماك في الحوض الكبير وكأنها جاءت تشاهد آدم وحواء في عناقهما الأول.

شعرا بدخول زوار آخرين إلى الجبلاية فعبرا من عتمة الجبلاية إلى نور النهار في الخارج ويدها لا تزال في يده.

حكى لها عما حدث مع والدة حسن زميلهما بالمعهد فعبرت وجهها سحابة حزن خفيفة وقالت: «كم كنت أتمنى أن تصل إلى الحقيقة أيًا كانت حتى يرتاح بالك ويزول عنك ذلك الشعور بالضياع».

لمحت في عينيه لمعة لعلها دمعة لم يرد لها أن تنهمر. قال: «كثيرًا ما أسأل نفسي: ترى ما شكل أمي؟ كيف عيناها؟ كيف شعرها؟ لابد أنها احتضنتني وأنا طفل. لا بد أنها أرضعتني. يقولون إن لبن الأم به تاريخها كله، به الحصانة من الأمراض التي أصابتها. لابد أن هذا التاريخ يعيش الآن بداخلي وأنا لا أعرف. أم أنهم أرضعوني لبنًا صناعيًّا لا علاقة له بأمي. لا أعرف. إنني لا أعرف حتى متى ذهبت أمي. هل تركتني وأنا رضيع، أو بعد أن فُطمت؟ كلما فكرت في هذا الموضوع شعرت بالضياع».

احتضنها ثانية وهو يقول: «اللحظات الوحيدة في حياتي التي لا أشعر فيها بالضياع هي حين أكون معك. إنك تمنحينني القدرة على مواصلة الحياة لأنني أشعر معك بأن حياتي مكتملة لا ينقصها شيء. لكن ما إن أتركك حتى أتلفت حولي فلا أجد لحياتي معنى وأبدأ في الشعور بأنني أفتقد أمي التي لا أعرف عنها شيئا».

أخذا يسيران بين أشجار الحديقة الباسقة والتي يزيد عمرها على عمرهما مجتمعين. سمعا من بعيد صوت أم تنادي ابنها: «أحمد .. أين أنت يا أحمد؟ هل سأظل أبحث عنك طوال اليوم؟». قال أيمن: «إنني أشعر بأن أمي لم تمت، لكنني أريد أن أعرف الحقيقة. كأنني أسمع نداءها يجيئني في يقظتي وفي منامي. في بعض الأحيان أشعر أنني اقتربت من معرفة الحقيقة وأنني أكاد أمسك بها في يدي، لكن ما إن أقترب منها حتى تطير بعيدًا كالفراشة التي نراها في لحظة ولا نراها في اللحظة التالية».

ابتسمت سلوى وهي تنظر لعوده الرياضي الفارع ثم قالت: «لكنك نجحت في الإمساك بفراشتك البيضاء بلا عناء كبير. عما قريب ستمسك

بالفراشة التي تناديك.. فأنت صائد فراش ماهر». قال:«إنك تملأينني دائما ثقة في نفسي وفي المستقبل».

قالت له: «لدي خبر أريد أن أطلعك عليه». تطلع إليها بكل حواسه. قالت: «لقد أصبحت صحفية». رفع حاجبيه وفغر فاه. «قابلت أمس رئيس قسم المحليات في جريدة «الصباح» المستقلة، ووافق أن أعمل معهم بالقطعة لمدة ثلاثة أشهر، وإذا أثبت جدارتي فسأعمل بمكافأة ثابتة إلى أن يتم تعييني».

احتضنها بذراعيه من وسطها، ودار بها في الهواء وهي تصرخ أن ينزلها. كان يعرف كم كانت تطوق للعمل بالصحافة، وكيف حاولت ذلك أكثر من مرة دون جدوى.

تحت إحدى الأشجار الظليلة جلسا وقد أسندت سلوى ظهرها إلى جذع الشجرة العتيقة وجلس أيمن أمامها متربعا، وأخذ ينظر في عينيها اللوزيتين. بعد برهة قالت له: «ماذا ترى» قال: «في عينيك أرى مستقبل حياتي. ذلك النني العسلي الذي يبدو كعين الهر المشعة بالضياء هو بللورتي السحرية». ابتسمت وهي تقول: «وماذا ترى في البللورة الآن؟» قال: «أراني جالسًا في منزلكم أمام والدكِ ووالدتكِ. ثم أراك تدخلين لتقدمي لي القهوة وأسمع والدتك تشيد بقدراتك في المطبخ» . ضحكت وهي تقول: «واضح أنك تشاهد الكثير من الأفلام الأبيض والأسود. لقد تغيرت الدنيا كثيرًا» قال: «ألن تقول أمك إنك ست بيت ممتازة»؟. قالت: «لا، فهي لا تحب الكذب». قال: «وأبوك ألن يطلب مني شقة تمليك وسيارة وحسابًا في البنك؟» ضحكت وهي تقول: «ألا أستحق كل ذلك؟» قال: «بل أكثر يا حبيبتي».

قطع عليهما الحديث صوت امرأة تصرخ في زوجها: «ثلاثون عاما من المصائب. لم أر معك يومًا سعيدًا». فرد عليها: «نعم ثلاثون عامًا ضاعت من عمري معك».

قال أيمن:«لم يعجبك الفيلم الأبيض والأسود الرومانسي؟ ها هو فيلم الألوان الواقعي» قالت: «لا فلنبقَ في الأبيض والأسود أفضل».

(8)

نافورة العشاق

كان الفندق الصغير يطل مباشرة على الـ «فونتانا دي تريڤي».. نافورة العشاق التي كان من يقذف فيها بعملة نقدية تتحقق أمنيته مهما كانت العملة صغيرة ومهما كانت الأمنية كبيرة.

كانت أمنية ضحى منذ زمن أن تنزل في هذا الفندق الذي لم يكن مثل فنادق الخمس نجوم التي اعتادتها، خاصة في رحلاتها مع زوجها، وكان من الصعوبة بمكان أن تجد غرفة خالية في هذا الفندق الصغير الذي يأتيه السواح من جميع أنحاء العالم. في رحلتها الأخيرة مع زوجها إلى روما أعطت ظهرها للنافورة وقذفت من وراء ظهرها بعملة في الماء. نظر إليها زوجها في دهشة. ضحكت وقالت له: «تمنيت أن أنزل يومًا ما في هذا الفندق الصغير المليء دائمًا عن آخره». قال: «في بعض الأحيان يخيل إليَّ أنك ما زلتِ في سن المراهقة لم تبرحيه. إن أردت أن تجدي غرفة في الفندق فما عليكِ إلا أن تحجزي فيه مقدمًا».

أرادت أن تقول له إنها لم تدخل سن المرهقة أصلًا كي تبرحه، وأن بسببه حرمت من تلك السن التي تسمع أنها أجمل مراحل العمر حيث المرح والإقدام وغياب المسئولية، لكنها صمتت. زالت الابتسامة من على وجهها

وقالت: «إذن فلنحجز من الآن للعام القادم حين أجيء لصالون الربيع في ميلانو». قال زوجها: «هل تتصورين أنك ستنعمين بدقيقة نوم واحدة في هذا الفندق؟ إن نوافذ الغرف كلها تطل على الميدان، والسواح لا يتوقفون طوال الليل عن زيارة النافورة واللهو حولها بضجيجهم الذي لا ينقطع». قالت له: «أعرف كل ذلك. ومن أجل هذا أريد أن أنزل بهذا الفندق الذي يشعرني أنني نزيلة بالنافورة نفسها وليس بالفندق». قال: «إنكِ لست فقط مراهقة. أنت مجنونة أيضا».

حكت كل ذلك لأشرف الزيني في الطائرة بعد أن توثقت العلاقة بينهما خلال الرحلة، وأضافت: «أنا لن أمضي في روما إلا ثلاثة أيام سأطير بعدها إلى ميلانو لحضور صالون الأزياء، فلماذا لا أُمضي هذه الأيام بعيدة عن الرسميات الخانقة التي لم أعد أطيقها؟». قال لها: «معك حق. أما أنا فقد أُمضي في روما أسبوعًا كاملًا؛ لديَّ اجتماعات مع أساتذة كلية الهندسة بجامعة روما حيث نعد اتفاقية لتبادل الأساتذة والطلاب بين جامعتينا. بمجرد أن أنتهي منها سأتوجه إلى پالرمو عاصمة صقلية لحضور المؤتمر السنوي لمنظمات المجتمع المدني».

«في أي فندق تنزل بروما؟» سألته بعد لحظة تردد. أخرج من حقيبته رسالة إلكترونية وقرأ لها اسم الفندق المدون بها. قالت: «ألا تعرف أين هو؟». قال: «أنا لا أعرف روما، كما قلت لكِ، والزيارة كلها معدة لي، فأنا مدعو، وإلا لما وجدتِني معك هنا في الدرجة الأولى. . على فكرة أريدك أن تدليني على مطعم لطيف يمكنني أن أدعو فيه الليلة أحد أساتذة الجامعة هو وزوجته». قالت على الفور: «اذهب إلى حي «تراستڤري» القديم الواقع على الضفة الغربية للنهر. ستجد هناك أجملَ مطاعم روما». قال لها: «دليني على مطعم

محدد هناك». دلته على مطعمها المفضل. قالت إنه في شارع غاريبالدي، وأن تاريخه يعود إلى القرن الـ17 حين كان مجرد حانة تقدم النبيذ والخبز للفلاحين الذين يأتون إلى روما لدفع الضرائب المستحقة على غلالهم.

وما إن خرجا من مطار روما حتى افترقا، ومضى كل منهما إلى حال سبيله. لاحظت عند خروجها قبله وجود شخص في انتظاره في الخارج يحمل لافتة صغيرة عليها اسم «البروفيسور أشرف الزيني». تعجبت من أنها في صباح اليوم ذاته لم يكن هذا الاسم يعني لها أي شيء، وها هو صاحبه الآن رجل سعدت بمعرفته وتشعر أنه إنسان صادق.

كانت في بداية الرحلة تنوي أن تتصل بزوجها من روما لتخبره بوصولها، وتشكو له من موظفيه الذين لم يلتزموا برغبتها في إبقاء المقعد المجاور لها شاغرًا. ابتسمت وهي تتخيل الصدمة التي لابد سيصاب بها إذا عرف أن جارها كان أحد ألد أعداء الحزب، وأنهما لم يتوقفا عن الحديث طوال الرحلة.

دخلت إلى الفندق واتجهت مباشرة إلى موظف الاستقبال وقالت له: «لقد حجزت غرفة عندكم منذ العام الماضي، ثم أكدت الحجز منذ أسبوع عن طريق الإنترنت». خشيت ألا تجد الغرفة، لكن كل شيء كان كما توقعت، والغرفة كانت في انتظارها. لابد أن العملة التي ألقتها في العام الماضي في النافورة أحدثت مفعولها.

صعدت إلى غرفتها بالدور الثاني على السلم. لم يكن هناك مصعد، وما إن دخلت الغرفة وفتحت النافذة المطلة على النافورة حتى امتلأت الغرفة بأصوات السواح وكأنهم قد صعدوا جميعا إلى غرفة نومها. ارتمت على السرير وأخذت تضحك مما فعلت بنفسها، كيف ستبيت ليلتها هكذا وكأنها في الميدان؟ بل كأنها داخل النافورة ذاتها؟!

كان مشهد النافورة مختلفًا تمامًا من نافذة غرفتها؛ فالناس جميعًا يشاهدون التماثيل الرخامية المنحوتة على الحائط الخلفي للنافورة من منظور سفلي، أما المشهد الذي تبدى أمامها من النافذة، فكان مشهدًا علويًا أحست معه أنها تشاهد هذه النافورة الرائعة لأول مرة. وجدت في الغرفة منشورًا ملونًا عن الفندق والنافورة يقول إن الذي نحت تماثيلها هو المثال الشهير جيوسبي بانيني عام 1762. كان إله البحار المنحوت في القبو الأوسط للنافورة عملاقًا والمياه تتدفق من تحت قدميه، لكن من نافذة غرفتها كان وجهها على نفس مستوى وجهه. أحست لوهلة بأنها في حجمه وأنها مثله تملك القدرة على تطويع مسارات حياتها لتتدفق في الاتجاه الذي تريده.

كانت على موعد مع صديقة لها، هي زوجة أحد نواب البرلمان من معارف زوجها، كانا قد زارا مصر واتفقت الزوجتان على أن يلتقيا عند زيارة ضحى لروما ليتناولا العشاء سويا قبل سفرها إلى ميلانو. كان أول ما قالته لها جابرييلا حين حضرت إلى الفندق لتصحبها إلى العشاء: «كيف ستنامين الليل في هذا المكان؟». ضحكت ضحى، وقالت لها: «لا يبدو أنني سأنام الليل ولا النهار، فالسواح لا يتوقفون عن زيارة النافورة لا في الليل ولا في النهار». ثم سألتها جابرييلا أين تريد أن تتناول العشاء؟ فقالت ضحى على الفور: «في مطعم أنتيكا بيزا في حي تراستفري».

وفي المطعم القديم جاء النادل فأشعل الشمعة الموضوعة وسط المنضدة، ونظرت ضحى إلى حوائط المطعم التي تزينها صور كبار الشخصيات العالمية ممن زاروا هذا المكان؛ من ممثلين ورجال سياسة وأدباء، وقالت لجابرييلا: «أشعر بألفة في هذا المكان». فردت عليها بابتسامة: «هل لأنكِ بين أقرانكِ من مشاهير العالم؟».

قالت: «بل أشعر بالألفة بالرغم من هؤلاء المشاهير. إن ما يشعرني بالراحة هنا هو تاريخ هذه الحوائط. وليس الصور التي تزينها». قالت جابرييلا: «مع ذلك أعتقد أن مدير المطعم لو اطلع على تصميماتك التي شاهدتها في القاهرة والتي لابد ستلقى نجاحًا كبيرًا في ميلانو سيسارع بوضع صورتك إلى جوار هذه الصور». شكرتها ضحى وقالت لها: «الحقيقة أنني سأقدم هذه المرة مجموعة جديدة تمامًا من التصميمات تختلف عما أطلعتك عليه في مصر.. أهم ما يميزها أنها كلها مستوحاة من الفراشة، فبعض الفساتين تتدلى أكمامها كالأجنحة، والبعض الآخر لها ذيول تتهادى خلف الفستان، وكلها تستحضر بألوانها الصيفية ألوان الفراشات الزاهية». ثم قالت: «أنا في الحقيقة مهتمة جدًّا بالفراش. إن للفراشة الواحدة أكثر من حياة، فهي تتحول من دودة محبوسة داخل شرنقة إلى فراشة جميلة ذات أجنحة تطير بها في الهواء لتستنشق عطر الأزهار. إن الفراشة بالنسبة لي رمز لميلاد حياة جديدة» . ثم ضحكت وقالت: «يخيل إليَّ في بعض الأحيان أنني خلقت لأكون فراشة».

قالت جابرييلا: «للحكيم والفيلسوف الصيني تشانج زي الذي عاش قبل الميلاد بحوالي 300 سنة مقولة يتساءل فيها: «لست أعرف إن كنت آنذاك إنسانًا يحلم أنه فراشة، أو أنني الآن فراشة أحلم أنني إنسان؟!»».

جاء النادل يعرض قائمة الطعام. قالت ضحى إن بها رغبة اليوم لمأكولات البحر، فأشارت جابرييلا بأصبعها إلى طبق ما إن رأته ضحى حتى ضحكت هي وجابرييلا سويا. كان هو سمك السردين المقلي المفتوح من جانبيه وكأن له جناحين وكان يحمل اسم «سردين بترفلاي». أثارت ضحكتهما المشتركة انتباه الحضور.

نظرت ضحى حولها، فإذا بها تجد على بعد طاولتين الدكتور أشرف ومعه أستاذ الجامعة الذي حدثها عنه وزوجته. لاحظها فأشار لها محييًا فردت تحيته، وقالت لجابرييلا: «هذا أحد أقطاب المعارضة في مصر.. كان معي على الطائرة هذا الصباح». فقالت لها جابرييلا: «والشخص الذي معه هو أحد قيادات الحزب الشيوعي الإيطالي». فردت ضحى: «أعوذ بالله!». فنظرت إليها جابرييلا غير فاهمة تعليقها. قالت ضحى: «هل لا يزال عندكم شيوعيون؟ ألا يكفي ما تسببوا فيه من مآسٍ في العالم؟». فردت جابرييلا: «إن زوجي كما تعلمين في الحزب الحاكم وهو أبعد ما يكون عن اليسار، لكن الشيوعيين والاشتراكيين لهم دور كبير في الحياة السياسية عندنا، وفي بعض الأحيان تتحالف أحزاب اليمين معهم لتشكيل الحكومة». فاكتفت ضحى بالقول: «الوضع عندنا مختلف».

تطرق الحديث مرة أخرى إلى تصميمات ضحى، فقالت جابرييلا: «أشعر مما وصفتِه لي أن أزياءك ستكون مريحة جدًا لمن ترتديها». قالت ضحى: «تلك من الأشياء التي حرصت عليها، فمعظم مصممي الأزياء في العالم من الرجال، والمرأة للكثيرين منهم مجرد شماعة يعلقون عليها أزياءهم، أما حين تكون المصممة امرأة فإنها تشعر بجسد من ترتدي الزي بشكل مختلف، وعندئذ تدخل الراحة كاعتبار أساسي في أزيائها، فما فائدة أن يكون الزي مبتكرًا لكنه غير مريح؟ إن هدف الأزياء في رأيي ليس مجرد أن تجعل المرأة أكثر أناقة، إنما أن تجعلها أكثر سعادة».

ضحكت جابرييلا وهي تقول: «لقد شوقتِني يا ضحى أن أطلع على أزيائك السعيدة».

كان عشاءً جميلًا يمثل بداية موفقة لرحلتها التي كانت تتطلع بشغف لنتائجها النهائية بعد أيام في ميلانو. شكرت جابرييلا وهمت هي وصديقتها بالنهوض حين فوجئت بأشرف الزيني يقبل عليها بابتسامة عريضة هو وضيفاه الإيطاليان.

وقفت ضحى مع أشرف الزيني أمام النافورة الكبيرة يراقبان السائحين وهم يقذفون فيها بالعملات المعدنية. كانت الإضاءة الليلية تزيد من روعة التماثيل الرخامية التي تزين النافورة.

قالت ضحى: «يخيل إليك وأنت تشاهد هذا المنظر أن العالم لا مشاكل فيه ولا أحزان. الكل سعيد يستمتع بوقته حتى هؤلاء الفقراء الذين يبيعون التذكارات السياحية». ولأول مرة لاحظ أشرف منذ التقى ضحى في الطائرة ذلك الحزن الدفين الذي يسكن عينيها. أحس بأنه يقترب منها وأنها تقترب منه. أحس بأن القدر يدفع بهما في مسار لا يملكان إزاءه خيارًا.

كان الدكتور أشرف قد علم من صديقه الدكتور جيوفاني فرانكو وزوجته أثناء عشائهم في المطعم أن ابنهما ماريو يعمل في واحد من أكبر بيوت الأزياء الإيطالية، وأنه في ميلانو الآن يشرف على إعداد صالون الأزياء السنوي الكبير، فقال لهما إن السيدة الجالسة هناك مع صديقتها الإيطالية مصممة أزياء كبيرة من مصر، وأنها جاءت لإيطاليا خصيصا للمشاركة في هذا الصالون، فذهبا إليها مع الدكتور أشرف وأعطياها اسم ابنهما ورقم تليفونه لتتصل به في ميلانو إذا ما احتاجت أية مساعدة.

تأثرت ضحى لذوق الدكتور فرانكو وزوجته وعرفتهما بصديقتها جابرييلا فوقفوا جميعًا يتجاذبون أطراف الحديث لدقائق، قال فيها الزوجان الإيطاليان إنهما يتطلعان لمشاهدة أزيائها المصرية فهما سيحضران الصالون

هذا العام بدعوة من ابنها. قالت ضحى ضاحكة: «ها قد ضمنت أول متفرجين من الجمهور».

وسرعان ما تفرق الجميع كل إلى طريق، وقالت ضحى إنها ستسير إلى فندقها فالجو جميل وهي بحاجة للحركة قليلًا بعد أن أمضت الصباح جالسة في الطائرة والمساء جالسة في المطعم. فقال أشرف إنه يسعده أن يصحبها إلى الفندق ثم يستقل تاكسي من هناك إلى فندقه.

هل كان أشرف يبحث في قرارة نفسه عن فرصة للقاء آخر مع ضحى؟ وهل كانت ضحى تبحث هي الأخرى عن لقاء ثان مع أشرف حين أعطته اسم المطعم الذي كانت ستذهب إليه في المساء؟ كان يمكن ألا يلتقيا ثانية في روما، ولا حتى في مصر فمدار تحرك كل منهما كان مختلفًا عن الآخر كأن كلًّا منهما نجم في مجرة غير المجرة. لكن ها هو اللقاء يتجدد. فهل كان ذلك بفعل القدر؟.. وهل ما نسميه قدرا هو ترتيب خارج على إرادتنا، أو أننا قد نوجهه دون أن ندري في الاتجاه الذي نريد؟

«هذا هو إله البحر الذي تتدفق مياه النافورة من تحت قدميه، هو الذي يوجه مياه البحار كما يشاء» قالت ضحى لأشرف وهما جالسان على حافة النافورة الرخامية، فرد عليها: «كنت أظن أن مياه البحار تخضع لعوامل ثابتة تتحكم فيها دورة الأمطار وثلوج القطبين الشمالي والجنوبي». قالت له: «هذا ما نظنه جميعا لكن الحقيقة غير ذلك، وها هو الدليل أمام عينيك». قال: «إن ما أراه أمام عيني هو أجمل ما شاهدته في حياتي». قالت: «والآن أعطِ له ظهرك». لم يفهم ما تقصده ضحى فشرحت له طقوس نافورة العشاق حيث يجب على المرء أن يعطيها ظهره وأن يقذف فيها بثلاث قطع من العملة بيده اليمنى من خلف كتفه الأيسر، فإذا استقرت العملات داخل النافورة كان

له حظ وفير. قال أشرف ضاحكًا: «يبدو لي أن الحظ الوافر هو لمن يحصل في النهاية على كل هذه العملات الراقدة في قاع النافورة».

قالت: «هل تعرف كم من العملات يقذف بها في هذه النافورة؟ إن التقدير الرسمي يشير إلى 3 آلاف يورو في اليوم الواحد وهي تذهب بالكامل إلى «سوبر ماركت» مخصص لتلبية احتياجات الفقراء، فيما عدا ما يتم سرقته بالطبع في الساعات المتأخرة من الليل». قال: «لعلكِ تتمكنين من ضبط هؤلاء اللصوص من نافذتك في الساعات المتأخرة من الليل». قالت: «ولم لا؟ فأنا لن أنام طوال الليل». ثم اعتدلت في جلستها على السور الرخامي للنافورة وهي تتأهب لإلقاء العملات الثلاث التي في يدها: «الآن اتركني أركز على التصويب وإلا ضيعت عليَّ الحظ الذي ينتظرني في ميلانو».

أخذ يرقبها وهي تقذف بالعملة الأولى من خلف ظهرها، ثم الثانية، والثالثة، وقد استقرت جميعا في قاع النافورة. قال: «مبروك عليك. ها قد ضمنتِ النجاح الأكيد لعرض أزيائك». ثم أضاف بعد لحظة تفكير: «على فكرة لقد سألني الدكتور جيوفاني فرانكو وزوجته عن نوعية الأزياء التي تصممينها، وقالوا إنهم لم يشاهدوا تصميمات مصرية من قبل». قالت: «ومن قال إنها تصميمات مصرية؟ إنني أسعى لأن تكون تصميماتي عالمية بحيث لا تفرق بينها وبين تصميمات بيوت الأزياء الأوروبية. قال: «سيصابون بخيبة أمل لاشك، فهم يتصورون أن أزياءك القادمة من مصر ستكون مميزة، أو أنها ستحمل بشكل ما عبق حضارة عريقة وعطر ثقافة مختلفة». قالت: «لم أفكر في هذا على الإطلاق، بل على العكس كنت أفكر في مصدر إلهام عالمي يروق

للناس في جميع أنحاء العالم؛ لذا استقررت في النهاية على الفراشة وصممت أزياء مستوحاة من هذا الكائن الجميل بألوانه الزاهية. لم أفكر في الأهرامات وأبو الهول والنخيل والجمال فهي لا تصلح للأزياء».

أحس أن الهوة التي تفصل بين مدار كل منهما قد ظهرت من جديد بالرغم من التواصل الإنساني الذي جمع بينهما طوال اليوم وعلى مسافة آلاف الكيلو مترات من القاهرة إلى روما، فلم يرد.

قالت ضحى: «كثير من الناس لا يقدرون قيمة ذلك المخلوق الجميل الذي رغم ضعفه استأثر باهتمام البشر جميعًا على مر العصور».

ساد بينهما الصمت. تأمل أشرف ضحى وهي تنصت لصوت خرير الماء وقد أغمضت عينيها. لاحظ لأول مرة قوامها الملفوف. كانت ممتلئة بعض الشيء؛ مما أكد استدارات جسدها. كان يتصور أن عينيها هما أجمل ما في وجهها بنظراتها الحزينة رغم البريق المتوهج الذي يشع منهما كلما تحمست في الحديث. لكنهما الآن وقد أغمضتا، فقد تركتا الصدارة لشفتيها المكتنزتين تحت أنفها الدقيق. أحس أنه يتلصص على ما لا يخصه، فأشاح بوجهه بعيدا إلى المياه المتدفقة من النافورة.

تذكرت ضحى المشهد الشهير في فيلم La Dolce Vita أو «الحياة الحلوة» لفلليني حين نزلت أنيتا إكبرج بطلة الفيلم إلى النافورة بثيابها كاملة بعد سهرة صاخبة. حكت للدكتور أشرف أنها شاهدت صور النافورة في الصحف الإيطالية وقد اتشحت بملاءة حداد سوداء يوم وفاة بطل الفيلم ممثل إيطاليا الشهير مارتشيللو ماستروياني عام 1996. قالت: «من الأشياء التي تعجبني هنا اهتمام الإيطاليين بالفن والثقافة بقدر اهتمامهم بالاقتصاد

والسياسية، فلو حدث عندنا أن أعلنا الحداد على أحد الآثار بسبب رحيل فنان ارتبط بهذا الأثر لخرج أحد المعارضين وقال: من ذاك الذي من أجله نغطي آثارنا بالسواد؟!».

قال: «بعض الناس أفقهم ضيق في الحكومة والمعارضة على حد سواء. إن الشعب المصري هو الأكثر وعيا من رجال السياسة، وهو يقدس فنانيه وكتابه كأنهم قادة سياسيون، فحب المصريين لأم كلثوم مثلًا أو لنجيب محفوظ لا يقل عن حبهم لسعد زغلول أو جمال عبدالناصر. إن من لا يفهم هذا لا يجب أن يعمل بالسياسة».

أعجبها كلامه؛ فنظرت إليه في صمت دون أن ترد.

مرت بائعة زهور تحمل طفلًا صغيرًا في يد وباقة ورد أحمر في اليد الأخرى، عرضت الزهور على الجالسين حول النافورة. لم يشتر منها أحد. سألها الدكتور أشرف باللغة الإنجليزية من أين أتت؟ لم تفهم. قالت ضحى: «ربما كانت من الغجر الجائلين». كانت تغطي شعر رأسها بوشاح أبيض خفيف. نطق أشرف باسم البوسنة فأشارت الفتاة له بالإيجاب. أخرج من جيبه بعض العملات وأعطاها لها دون أن يأخذ منها زهورًا، لكن الفتاة لم تشأ أن تأخذ النقود بلا مقابل كالشحاذين، فقدمت وردة حمراء يانعة إلى ضحى ومضت.

نظر الدكتور أشرف إلى ساعته وقال: «لابد أنك متعبة، فيوم السفر دائما شاق. ثم ودعها وهو يقول: «أشكرك على كل شيء. على هذه الجولة السياحية الرائعة، وعلى اقتراحك الممتاز بالنسبة للمطعم. لقد أعجب به ضيوفي الذين لم يكونوا يعرفونه رغم أنهم من أهل البلد، ثم أشكرك قبل ذلك وبعده على الصحبة الجميلة. لقد سعدت جدًّا اليوم بمعرفتك».

أحست بأنه يودعها، وأن هذا هو اللقاء الأخير في تلك العلاقة التي بدأت صباح ذلك اليوم، وها هي تبدو وكأنها انتهت في المساء. مد لها يده فصافحته وأحست بالصدق ينساب من يده الدافئة إلى أناملها التي كانت قد بدأت تشعر ببرد الليل، ثم استدارت متجهة إلى الفندق وفي يدها الوردة الحمراء.

بمجرد أن دخلت غرفتها ملأت أحد كوبين وجدتهما في الحمام بالماء ووضعت فيه الوردة بعناية، ثم وضعت الكوب على المنضدة الصغيرة إلى جوار سريرها.

(9)

«النمـــر»

في اليوم التالي صحت ضحى من نومها فأطلت عليها الوردة الحمراء جميلة يانعة كما كانت بالأمس. تعجبت كيف استطاعت النوم رغم ضجيج الميدان تحت النافذة، فما إن أراحت رأسها على الوسادة حتى ذهبت في نوم عميق. لعله كان تعب يوم السفر، أو ربما على النقيض من ذلك كان الشعور بالراحة الذي أحست به بعد وصولها إلى روما . أو لعله التعب الجسماني والراحة النفسية معًا.

قامت على الفور من فراشها إلى النافذة. فتحتها فوجدت النافورة رائعة كما كانت بالأمس، ووجدت إله البحار لا يزال متحكمًا في المياه كما هو. كان المشهد خلابًا في النهار كما كان في الليل، وكانت خلفيته الموسيقية هي خرير الماء الذي لا ينقطع. أخذت نفسًا عميقًا فامتلأ كيانها بهواء الصباح النقي. أحست بالثقة تملؤها وبالتفاؤل يشع من روحها.

كان عليها أن تذهب في ذلك اليوم إلى مكتب شركة مصر للطيران لتطمئن على وصول الأزياء التي تم شحنها من مصر إلى ميلانو وأنه تم تسليمها للصالون هناك. لكن موعد وصول الطائرة كان بعد الظهر فقررت أن تمضي الصباح في التمشية في شوارع المدينة لتطالع الأزياء المعروضة في المحال حتى تتعرف على ما تعرضه بيوت الموضة في ذلك الموسم.

ذهبت أول ما ذهبت إلى شارع «ڤيا كوندوتي» الراقي، ثم مشت على قدميها حتى «ڤيا ديل كورسو» التجاري إلى أن انتهت بها الجولة في «ڤيا فينيتو» حيث جلست في أحد المقاهي تتناول فنجان القهوة «الإسبرسو» الإيطالي الذي كانت تهواه.

كانت الأزياء التي شاهدتها ألوانها مبهجة في معظم واجهات المحال كأنها ألوان الطبيعة في الصيف، الألوان الصريحة كالأحمر والأصفر والأزرق والأخضر وليس أنصاف الألوان كالرماديات أو الوردي أو اللبني التي يسميها الفنانون ألوان «الباستل». اطمأنت إلى أزيائها، فتلك هي الألوان التي اعتمدت عليها في تصميماتها.

سمعت من خلفها اللغة العربية وهي ترشف قهوتها، فالتفتت لتجد رجلين لم تتبين ملامحهما من الخلف، لكن لهجتهما كانت غير مصرية. تذكرت الدكتور أشرف الزيني الذي ترك في نفسها انطباعًا غريبًا هو مزيج من الألفة والكلفة معا. كأنه قريب جدًّا منها، وفي الوقت ذاته تفصل بينها وبينه هوة ساحقة لا يمكن تخطيها. هو على أي حال رجل صادق لا تتفق معه في مواقفه لكنها لا تستطيع أن تتهمه بالانتهازية التي كانت تجدها الطابع المميز لمعظم رجال السياسة.

ماذا كان يقصد بأن أزياءها كان يجب أن تكون مصرية؟ ماذا يعرف هو عن الأزياء؟ ثم كيف تكون الأزياء مصرية أو سويدية أو مكسيكية؟ الأزياء الحديثة يصعب أن تعرف جنسية مصممها. لقد اختارت لنفسها موضوعًا من الطبيعة التي هي أساس كل الفنون في كل زمان ومكان وكانت تتطلع بذلك إلى أن تروق لكل الجنسيات.

رن جرس تليفونها المحمول. لم يظهر رقم طالبها. أدركت أنه زوجها فرقمه سري لا يظهر على الشاشة: «هيه؟ كيف الحال؟». ردت : «كل شيء على ما يرام». قال: «أين أنت الآن؟». قالت: «أنا جالسة في مقهى بشارع «فيا فينيتو» وقد أكملت قهوتي وسأمضي في طريقي». قال: «كان سفيرنا في روما يتحدث إليَّ الآن، فقلت له إنك في روما وهو سيتصل بك فورًا ليوفر لك سيارة بسائق، كما سيدعوك إلى حفل يقيمه هذا المساء لبعض المصريين الذين يزورون إيطاليا». قالت له في ضجر: «لا أريد سيارات. أنت تعلم جيدًا أنني أفضل في السفر أن أسير في الشوارع على قدمي، وإذا اقتضى الأمر أستقل تاكسي في حالات الضرورة. ثم إنني لم آت إلى روما كي أمضي وقتي في السفارة المصرية لأقابل المصريين الذين يزورون إيطاليا. أرجوك اعفني من هذه الرسميات التي سئمتها ودعني على حريتي. فأنا لست في مصر الآن». جاءها صوته جادًا: «عليَّ أن أنهي المكالمة الآن فالاجتماع بدأ. افعلي ما تشائين ولكن دون أن تسببي لي حرجًا مع السفير. هو لا يريد إلا خدمتي».

ما إن انتهت المكالمة وتركت ضحى المقهى حتى جاءتها مكالمة السفير وكأنه كان جالسًا إلى جوار زوجها ينتظر أن يغلق الخط حتى يطلبها. أخذ يرحب بها ويؤكد أن أحدًا لم يخبره بقدومها وإلا كان قد ذهب لانتظارها بالمطار كما تقضي الأصول، وليتأكد بنفسه أنها عوملت معاملة الشخصيات المهمة. أكدت له أنها عوملت معاملة حسنة وليس لديها أي شكوى من أي شيء. عرض عليها إرسال السيارة لتكون تحت أمرها خلال زيارتها فشكرته، قائلة إنها تفضل أن تسير على قدميها لتشاهد محال الأزياء بحرية. دعاها إلى حفل العشاء الذي يقيمه بالسفارة فاعتذرت شاكرة، لكنه أصر وقال لها إن زوجته تريد أن تحدثها ثم ناول التليفون لزوجته فكررت الترحاب بها بنفس الألفاظ والعبارات التي استخدمها زوجها، وقالت لها إن هناك سيارة تحت

أمرها بأمر من السفير طوال فترة زيارتها، فقالت لها ضحى نفس ما قالته لزوجها، فدعتها زوجة السفير على العشاء وقالت لها إنها سترسل لها سيارة بالسائق ثم طلبت منها أن تحضر معها حقائبها وتنتقل للإقامة في السفارة بدلًا من الفندق، فلا يصح أبدًا أن تكون ضحى هانم الكناني حرم مدحت بك الصفتي في روما ولا تنزل في السفارة. شكرتها ضحى في لطف فبدأت زوجة السفير تشرح لها أن السفارة عبارة عن قصر منيف وأخذت تعدد لها عدد غرف النوم التي بالقصر. أرادت ضحى أن تقول لها إنها تعرف القصر جيدًا وأنها دخلته كثيرًا قبل أن تطأه أقدامها هي وزوجها.

ظلت ضحى تتشكر وتعتذر عن العرض تلو الآخر، وفي النهاية وإزاء إلحاحها وإلحاح السفير الذي عاد يعرض عليها ضرورة الانتقال إلى الإقامة بالسفارة قبلت أن تحضر العشاء، لكنها قالت إنها تريد أن تمضي الأيام التي ستقضيها في روما وسط البلد حيث المحال التي تريد ارتيادها، فعرض عليها السفير أن تصحبها زوجته يوميًا إلى محال الملابس. فقالت له ضحى لنتحدث في ذلك هذا المساء حين نلتقي. انتهت المكالمة فأغلقت ضحى تليفونها حتى لا تتلقى مكالمات أخرى، فالمكالمتان اللتان تلقتهما أثارا أعصابها وجعلاها تشعر أنها لا تزال في مصر.

فى طريق عودتها إلى الفندق توقفت في إحدى المكتبات الكبرى التي تضم قسمًا للكتب الأجنبية. على أرفف الكتب الإنجليزية وجدت كتابًا يحمل على غلافه صورة ملونة لفراشة رائعة كان عنوانه «فراشات مصر». تذكرت على الفور أشرف الزيني. كان الكتاب مليئًا بالصور الباهرة. هل كل هذه الفراشات مصرية؟!

كان بالمكتبة ركن به مقاعد وثيرة لمن يريد تصفح الكتب، أخذت الكتاب وجلست على أحد المقاعد تقلب فيه، يا له من اكتشاف!

وجدت نفسها مدفوعة دفعًا إلى هذا الكتاب. قد يكون السبب هو اهتمامها بالفراشة وكلمات الفيلسوف الصيني التي روتها لها جابرييلا عن العلاقة بين الفراشة والإنسان، وقد يكون حديث أشرف الزيني الذي سألها إن كان لأزيائها طابع مصري. كانت تتصور أن الفراش يطير في جميع أنحاء العالم وأنه بذلك كائن عالمي لا موطن له. لكن ها هو الكتاب يقول من عنوانه إن هناك فراشات مصرية ويا لها من فراشات.

انغمست في قراءة الكتاب ونسيت ما حولها:

«منذ أكثر من ثلاثة الآف سنة جلس فنان مصري في طيبة القديمة وقد وضع أمامه أدوات رسمه. كانت أمامه أيضًا بعض الزهور والنباتات والحشرات والأسماك التي جمعها ليرسمها على الجدارية الكبيرة التي كان يقوم بتجهيزها لمقبرة أحد كبار رجال البلاط.

كان الفنان قد انتهى من رسم صاحب المقبرة جالسًا في مركب الشمس التي كانت ستقله إلى عالم الخلود وحوله عدد كبير من الخدم وأفراد الحاشية، وكان على الفنان الآن أن يرسم بقية الجدارية.

كانت النباتات والزهور الطبيعية هي أكثر ما يمتعه، فرسم الأشخاص كان يخضع لمقاييس صارمة خاصة إذا كانت المقبرة لواحد من علية القوم الذين يجب أن يظهروا في الرسوم بصورة مثالية وإلا غضب الكهنة من الفنان ولم يكلفوه بعملٍ بعد ذلك. أما رسم الطبيعة فكان يطلق العنان لخياله،

يرسم السمكة كبيرة أو صغيرة، بالطول أو بالعرض، ويخضع أعواد البردي لمقاييسه الفنية وليس للقوانين الصارمة الخاصة بتصوير الملوك والنبلاء.

نظر الفنان إلى الأشياء التي جمعها على طاولته فاستوقفته إحدى الفراشات ذات الألوان الخلابة .. إنها فراشة «النمر». كان جسدها أسود داكنًا تعلوه نقاط بيضاء، أما جناحاها فكان لونها خليطًا ما بين البني والبرتقالي تحيطهما أطراف تردد نفس لون الجسد الأسود ذي النقط البيضاء. يا لها من فراشة رائعة! كان الفنان يشاهدها دائمًا في الحقول والحدائق لكنه لم يتمعن فيها بهذا القدر: هل سيتمكن من رسم جمال الفراشة ونقل لونها الغريب كما هو في الطبيعة؟» .

كانت تلك هي فاتحة الكتاب الذي مضى يقول بعد ذلك إن هذا الفنان المصري المجهول ترك لنا أقدم رسم للفراش عرفه الإنسان من خلال تصويره الجميل لفراشة «النمر» المصرية الأصيلة واسمها اللاتيني danaus chrisippus والتي عاصرت فراعنة مصر القديمة، ولا تزال تطير في أجواء مصر الحديثة، فهي أجمل الفراشات والأكبر حجمًا بين مختلف أنواع الفراش المصري.

فرت ضحى الكتاب سريعًا فتتابعت أمام عينيها صور الفراشات بألوانها الباهرة وكأنها سرب يطير وراء بعضه البعض. ستشتري هذا الكتاب. أغلقت الكتاب في حرص وكأنها تغلق باب كنز اكتشفته سرًّا وتريد الحفاظ عليه.

(10)

عبد الصمد

لم يكن عبد الصمد يحدث أحدًا فيما يخصه، كان أيمن يعرف ـــ مثل والدهما ـــ أن أخاه يعمل في مكتب عقاري، لكن أحدًا لم يكن يعرف أين هذا المكتب، ولا كم وصل الآن راتبه فيه. عند بداية تعيينه سأله الأب عن الراتب فذكره له فحدد له الأب المبلغ الذي عليه أن يساهم به في نفقات المنزل. لكن ذلك مضى عليه سنتان الآن ولابد أن راتبه تغير. كان أيمن وعبد الصمد ينامان في غرفة واحدة لكن تلك كانت المساحة الوحيدة المشتركة في حياتهما، فلم يكن أيمن يعرف شيئا عن حياة شقيقه الأكبر .

لذلك تعجب أيمن في ذلك اليوم حين قال له عبد الصمد: «أريد أن أحدثك في شيء، لكني أريدك أن تعدني بأن يكون سرًّا بيننا»، فوعده أيمن بذلك. أخذ عبد الصمد يروي له أنه يسعى منذ فترة للسفر إلى الخارج وأنه تعرف عن طريق الإنترنت على سيدة كبيرة في الكويت ستساعده في ذلك، فقد توطدت العلاقة بينهما على مدى الأسابيع الماضية وبعث كل منهما للآخر بصورته على الإنترنت، ثم تحدثا في التليفون، وأنها بعد أن وثقت فيه بدأت تطلبه كل يوم من الكويت.

بدأ أيمن يسأله بعض الأسئلة حول هذا الموضوع الذي فوجئ به، فأجابه عبد الصمد بأن الشيخة رقية أرملة مات زوجها وترك لها ثروة لا بأس بها، وأنها أحبت شهامته واستعداده لحماية أموالها، وقد اتفقا على الزواج. ثم قال إنها وفرت له من مصر عقد عمل صوريًا في إحدى شركات الشحن بالكويت حتى تكون أوراقه سليمة، وأن الذي أعد له العقد يطلب خمسة آلاف جنيه هي كل ما سيدفعه عبد الصمد لكي يبدأ حياة جديدة خارج مصر ينعم فيها بكل ما ظل يحلم به طوال حياته.

ظل أيمن يلاحقه بالأسئلة .. ماذا لو قابلها فوجدها في الطبيعة قبيحة؟ أو اكتشف بعد الزواج منها أن طباعها سيئة؟ ماذا لو لم تعجبه تلك الحياة الجديدة في الكويت والتي لم يجربها من قبل؟ فقاطعه عبد الصمد قائلًا: «كل هذا لا يهم، المهم هو أن أخرج من هنا وأبدأ حياة جديدة. هل تعجبك حياتنا هذه؟! إن أي حياة أخرى ستكون أفضل».

قال له أيمن: «لكنني أخشى عليك مما ربما لا تعرفه لأن ..»، فقاطعه عبد الصمد مرة أخرى قائلا: «اسمع، لقد بحثت الأمر مليًا وكل هذه الأسئلة دارت في ذهني قبل أن تطرأ لك. أنا لا أتحدث إليك الآن كي تناقش معي الموضوع أو تقدم لي النصح، فقد قلبت الموضوع على جميع جوانبه ووصلت فيه إلى قرار وسأسافر في الأسبوع القادم».

صدم أيمن. لقد كان يتصور أن شقيقه يأخذ رأيه في الموضوع ولم يدر بخلده أنه عقد العزم ، وأنه بهذا الحديث إنما يودعه قبل سفره. وازدادت صدمته حين قال له عبد الصمد: «السبب الذي أحدثك من أجله هو أنني أحتاج مساعدتك. لقد أنفقت ما كنت أدخره من راتبي على استخراج جواز السفر وما تطلبه ذلك من مصاريف. كما أنفقت الكثير على الإنترنت. أما

مبلغ الخمسة آلاف جنيه فقد جمعت منه ألفين وخمسمائة جنيه بعد أن استدنت من كل من أعرفهم وبعت ساعتي وتليفوني المحمول، وأحتاج الآن لمثلهم. ألا يستطيع أحد من معارفك إقراضي هذا المبلغ الذي سينقلني النقلة التي أتطلع إليها منذ زمن؟ إنه المبلغ الذي سيدخلني الجنة. سأقوم برده فور وصولي إلى الكويت حيث سيكون لي هناك مالُ وفير، فالشيخة تثق بي ثقة عمياء».

سأله أيمن: «إذا كان الوضع كذلك فلماذا لم تدفع لك الشيخة هذا المبلغ؟»، فرد عليه عبد الصمد: «إنك لا تفهم، كان يجب أن أظهر أمامها على أنني مقتدر حتى لا تتصور أنني أطمع في أموالها. كل ما سأدفعه هو خمسة آلاف جنيه ثم سيكون لدي بعد ذلك مئات الآلاف من الجنيهات».

قال له أيمن: «ألم تحدث والدك؟» فرد عليه بسرعة: «لم أحدث أحدًا على الإطلاق. هذه حياتي ولا شأن لأحد بها، فلا تذهب وتنشر الخبر بين أبناء الحي كالأطفال، إما أن تساعدني أو لا، وفي الحالتين لا تقل لأحد شيئًا».

فقدم أيمن تليفونه المحمول لأخيه وقال له: «كل ما أخشاه أن يضيع عليك كل ذلك هباء»، فقال له: «أنا لم أضيع شيئا في حياتي، وتلك فرصة لا تعوض».

أخذ عبد الصمد التليفون وأخذ يقلبه بين يديه ثم قال لشقيقه: «هذا الجهاز إذا بعته لن يأتي لي بأكثر من مائة أو مائة وخمسين جنيهًا وأنا أريد ألفين وخمسمائة». احتار أيمن. لا يدري ماذا يفعل. قال لشقيقه الأكبر إنه كل ما لديه. فسأله عبد الصمد: «وأصدقاؤك أليس بينهم من يهوى الاستثمار؟ قل لهم إن المبلغ الذي سيدفعونه سيرد إليهم مضاعفًا». قال أيمن: «أصدقائي جميعًا من الطلبة الذين يعيشون على مصروف اليد الذي يتقاضونه من والديهم».

كان أيمن يريد أن يحكي لشقيقه عن طاقة الأمل الجديدة التي فتحت أمامه عن طريق الحاجة حكمت والدة صديقه حسن. كان يعرف أن موضوع والدتهما لم يكن يعني عبد الصمد كثيرًا بعد أن عرف أنها توفيت. لكنه كان يريد أن يقول له إن هناك أملًا في أن تكون أمهما على قيد الحياة.

فتح عبد الصمد تليفون أيمن ثم أغلقه. أخرج منه البطارية وقلبها بين يديه ثم أعادها مكانها. وضع التليفون تحت وسادته وقال لأيمن: «تصبح على خير».

(11)

حجرة ناريمان

كان العشاء في منزل السفير سقيمًا كما توقعت. أخذت زوجته ترحب بها بشكل مبالغ فيه مما أحرجها بين بقية الحضور، ثم كررت عليها أمام الجميع ضرورة أن تنتقل للإقامة بالسفارة، وأخذتها من يدها تتجول بها في مختلف الغرف والردهات وهي تقول: «البيت كبير وعندنا بدلًا من الغرفة ألف».

كان مقر السفارة المصرية الواقع داخل حدائق غناء، قصرًا جميلًا يعرف باسم «ڤيلا سافوي» وقد كان ملكًا لآخر ملوك إيطاليا من أسرة سافوي الملك عمانويل الثالث الذي نفي إلى مصر في عهد الملك فاروق، وعند عودته إلى إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية قرر إهداء القصر لمصر فجعلته الحكومة مقرًّا للسفارة المصرية.

أدخلتها زوجة السفير غرفة نوم فسيحة يغلب على أثاثها اللون الوردي، وقالت لها: «هذه هي الغرفة التي خصصتها لك». ثم خفضت صوتها وكأنها تسر إليها بشيء لا تريد لبقية الضيوف الذين لم يكونوا معهما أن يسمعوه: «إنها غرفة آخر ملكات مصر.. الملكة ناريمان التي تم إرسالها إلى إيطاليا في بعثة خاصة لتعلم «الإتيكيت» الملكي استعدادًا لعقد قرانها على الملك فاروق. هذه كانت غرفتها طوال فترة إقامتها في روما».

كانت ضحى معجبة بالقصر منذ دخلته قبل سنوات مضت، فقد كان يجمع بين العراقة في أسلوبه المعماري المائل لطراز عصر النهضة، لكنه لم يكن كبير الحجم بل كان أقرب إلى المنزل السكني الكبير منه إلى القصر المترامي الأطراف والذي يشعر فيه ساكنه بالوحشة. ولم يفت زوجة السفير أن تمارس الهواية المفضلة لزوجات السفراء أثناء تلك الجولة التفقدية، فقد ظلت تشير طوال الوقت إلى أنها هي التي أعادت طلاء هذه الغرفة بهذا اللون، وهي التي أصلحت تلك القطعة القديمة من الأثاث، وهي التي أخرجت هذه اللوحات القديمة من المخزن. أبدت ضحى إعجابها بكل شيء وكأنها تدخل القصر لأول مرة، ثم شكرت زوجة السفير على كل شيء واعتذرت أيضًا عن كل شيء، متمنية بينها وبين نفسها أن تنتهي تلك السهرة التي اقتطعت بعض ساعات من الأيام المعدودة التي كانت ستقضيها في روما.

نزلت ضحى بصحبة زوجة السفير الدرج الكبير المؤدي من غرف الدور العلوي إلى بهو المبنى حيث تجمع الضيوف، فوجدت أمامها الدكتور أشرف الزيني. كان يتحدث مع السفير ومجموعة من الضيوف. همَّ السفير على الفور ليقدم لها الدكتور أشرف وبقية الحضور بطريقة لم تترك لأي منهما فرصة لأن يشير إلى وجود سابق معرفة بينهما. قال السفير للدكتور أشرف: «اسمح لي أن أقدمك إلى ضيفة الشرف الليلة وهي السيدة ضحى الكناني زوجة أحد أهم قيادات الحزب الحاكم، أقصد طبعًا مدحت بك الصفتي». تعالت أصوات الحضور ما بين همهمات وأصوات ترحيب احمر معها وجه ضحى خجلًا . ثم قال لضحى: «الدكتور أشرف الزيني يشارك في أحد أهم المؤتمرات الدولية والتي ستعقد هذا العام في پالرمو». لامست يدها يده وهي تقول: «تشرفنا».

بعد العشاء تحينت ضحى الفرصة وذهبت إلى الدكتور أشرف. قالت له بصوت خافت: «لقد وجدت مصدر إلهام لتصميماتي أعتقد أنه سيعجبك». لم يفهم. قالت: «اكتشفت فراشة مصرية أصيلة غاية في الروعة يمكن أن تكون مصدرًا للتصميمات تفوق في جمالها ما استلهمته من الفراشات الأجنبية». ابتسم دون أن يعلق. قالت: «إنها فراشة «النمر» المصرية ذات اللون المميز الجامع بين البني والبرتقالي والأصفر وتاريخها يعود إلى عهد الفراعنة. إنني أشعر أن هذه الفراشة المصرية ستغير حياتي». سهمت قليلًا ثم قالت: «كم كنت أود بالفعل أن أعرض على الجمهور في ميلانو أزياء مستلهمة من الطبيعة المصرية أو التاريخ المصري». قال مداعبًا: «مثل الأهرامات والنخيل والجمال؟» ردت عليه: «حين قلت ذلك لم أكن قد فهمت ما تقصده». قال: «لم يكن لي أية مقاصد، كنت فقط أنقل إليك ما قاله أصدقائي الإيطاليون، وعلى أية حال سأشاهد بنفسي أزياءك بعد يومين في ميلانو، عندئذ أقول لك صراحة رأيي فيها». فغرت فاها قائلة: «كيف؟» قال: «لقد دعاني ابن البروفيسور چيوفاني لحضور العرض وعرض عليَّ أن أنزل ضيفا على الصالون لمدة يومين، ولما كنا قد انتهينا من مفاوضاتنا في الجامعة فقد وجدتها فرصة أن أمضي يومين في ميلانو قبل سفري إلى پالرمو، أشاهد خلالهما عرض الأزياء». أحست بحرج شديد وكأن غريبًا يعلن أنه سيدخل عليها غرفة نومها، لم تكن تريد له أن يرى الأزياء التي جاءت بها من القاهرة، الأزياء التي بدأت تشعر منذ اشترت ذلك الكتاب، بل ربما منذ قابلت الدكتور أشرف بأنها تفتقر إلى الهوية المصرية، كيف تحول الآن دون ذلك؟ كيف توصد الباب ولا تدعه يدخل غرفة نومها؟

جاء عدد من الضيوف إلى حيث كانت تقف مع الدكتور أشرف، وتشعب الحديث بين الحضور فافترقت ضحى عن الدكتور أشرف.

لكنها عادت إلى الفندق في ذلك المساء وهي تشعر بسعادة غامضة لا تعرف سببها. مع ذلك شعرت أيضًا بشيء من الاضطراب لما أخبرها به الدكتور أشرف من أنه سيحضر صالون الأزياء في ميلانو.

تقلبت في الفراش لا تستطيع النوم. تذكرت أنها لم تمر على شركة الطيران. لا يهم. لابد أن الأشياء وصلت. أضاءت النور مرة أخرى وأخذت تقلب في الكتاب الذي اشترته في الصباح. كانت كلما نظرت إلى صورة من صور الفراش المصري المتنوع الأشكال تراءى لها على الفور ما تستطيع أن تصممه من أزياء مستوحية روح هذه الفراشة أو تلك.

قلبت الكتاب على صدرها وهي نائمة فوق سريرها. احتضنته كأنه رجل راقد فوق جسدها. شردت قليلًا وهي تنظر إلى سقف الغرفة. تنظر في الفراغ، بينما انسابت من النافذة نسمة ليلية عليلة ارتجف لها جسدها.

فكرت في حياتها الزوجية الباردة. لم تكن هناك أية مشاعر دافئة تجمعها مع زوجها. منذ الليلة الأولى لزواجها فشلت علاقتهما الجنسية. كان مدحت مرتبكًا وكانت هي أيضًا مرتبكة. تردد كثيرًا قبل أن يبدأ ما كان عليه أن يفعله. كانت قد قرأت أن على الزوجة أن تساعد الزوج في ليلة الدخلة وألا تظل جثة هامدة ويقوم هو بكل شيء بينما هي ساكنة كالجماد. أرادت أن تساعده. تشجعت ومدت يدها إليه علها تساعد وصوله إلى حالة التأهب، لكن ما إن لامسته حتى سال أمامها لعاب لزج لطخ يدها وأوسخ ملابسها التي لم تكن قد خلعتها بالكامل.

غضب مدحت غضبًا شديدًا وعنفها قائلًا إنها ما كان عليها أن تفعل ذلك، وأنها أفسدت كل شيء بما فعلته. ظلت تعتذر له قائلة إنها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، وأنها حاولت فقط أن تساعده.

وانقضت تلك الليلة التي لم تنمحِ أبدًا من ذاكرتها تاركة في نفسها شعورًا مؤلمًا بالذنب إزاء ما اقترفته يدها دون قصد.

مضت بضعة أيام لم يمسسها فيها ، وكأنه يعاقبها على ما فعلت. انغلقت هي على نفسها لا تقوى على أن تخطو خطوة واحدة في هذا الاتجاه، ولا أن تتطرق للحديث في هذا الموضوع من قريب أو بعيد. في الأسبوع الثاني قرر مدحت أن يكرر المحاولة فتركت له نفسها تمامًا دون أن تبادر بأي حركة من جانبها، لكن حدث نفس الشيء وانتهت العملية قبل أن تبدأ فاتهمها بأنها كانت جثة هامدة وأن برودها الجنسي هو الذي يدفعه لأن ينهي الأمر بسرعة رغمًا عنه. لم تفهم ما قصده لكنها لم تناقشه لأنها لم تكن تعرف ماذا تقول، فساد بينهما صمت جنسي سميك كالجدار المنيع.

حين فض بكارتها في النهاية كان قد مضى على زواجهما أكثر من عشرة أيام. لم تكن تعرف أنه في ذلك اليوم تناول بعض العقاقير المخدرة لتعينه على الصمود لفترة أطول، وبالفعل طالت الفترة لدقائق مكنته أخيرًا من دخولها. لكن ما إن دخلها حتى انتهى الأمر كما حدث في المرات السابقة.

تكررت تلك المحاولات أثناء شهر العسل الذي قضياه في جولة أوروبية تمنت انقضاءها، إلى أن سئمت الجنس برمته، فقد كان عملية جسدية مضنية لم تستطع المشاعر أن تخترقها. كان الجدار الذي قام بينهما يزداد سمكًا وارتفاعًا مع كل محاولة جديدة. كان في كل مرة يتركها وهي في قمة تهيجها فكانت تصل إلى ذروتها وهي تغتسل بعد ذلك وحدها في الحمام.

كان شهر العسل مؤلمًا عليها نفسيًّا، بل لعله كان أسوأ فترة في حياتها. أحست أنها كانت السبب في إفساد حياتها الزوجية ، هل كان على والدتها أن تخبرها بمـا كان يجب عليها أن تقوم به؟ هل كانت خطيئتها أنها كانت

بلا خبرة؟ كم من مرة حاولت أن تتحدث إلى أمها لتشكو لها أو على الأقل لتسألها كيف يمكن أن تصحح خطأها، لكنها كانت تعجز في اللحظة الأخيرة فلم تكن أمها ستفهم، بل كانت ستفهم لكنها لم تكن ستقدر.

لكن الوقت مضى وقرأت ذات يوم في إحدى المجلات النسائية موضوعًا طويلًا عن القذف المبكر فأدركت أنها ليست وحدها، وأن نسبة لا بأس بها من الرجال يعانون من نفس الحالة، والبعض منهم لا يذهب للطبيب، فطلب العلاج هو اعتراف بالعجز، وهم ليسوا عاجزين رغم أن حالتهم قد تؤدي بالفعل للعجز عن إتمام العملية الجنسية.

وهكذا عرفت أنها لا دخل لها فيما يعاني منه زوجها، فكرهته لدرجة أنها فكرت أكثر من مرة في الطلاق لكنها لم تجرؤ على الإقدام عليه، فالطلاق غير مقبول من أسرتها ولا من أسرته، ثم إنها لم تكن ستجرؤ على إعلان سبب الطلاق على أسرتها التي كانت ترى أن تجنب الطلاق أهم بكثير من أي سبب كانت ستقوله لهم.

نعم كرهت مدحت كراهية شديدة في البداية، كيف يقدم على الزواج وهو يعلم أنه غير قادر على تحمل مسئولياته الزوجية؟ ثم كيف يجعلها تشعر طوال الوقت بأنها المذنبة؟ وكيف كان لها أن تعرف أن زوجها يعاني من القذف المبكر؟ يبدو أن في الزواج جانبًا قدريًا وأن لكل زوجة حظها الذي تكتشفه فقط بعد الزواج. هل هناك وسيلة كي تعرف الزوجة أو أهلها قبل الزواج القدرات الجنسية لمن يتقدم للزواج منها؟

ظلت مثل هذه الأفكار تشغلها طويلًا لكنها لم تجرؤ على أن تفاتح أحدًا في هذا الأمر، ولم يكن أمامها وسيلة لإنهاء هذا الوضع بأي شكل من الأشكال. كانت متزوجة رسميًا لكنها فعليًا كانت عانسًا، أو مطلقة، أو

أرملة، وكان عليها أن تقبل ذلك في صمت. المطلقة قد تتزوج، وكذلك العانس أو الأرملة، لكنها هي كان عليها أن تظل على حالها.

فكرت أكثر من مرة في أن تتحدث إلى شقيقها. لم يعد لها من أسرتها غيره بعد وفاة والديها، ثم إنها كانت ترتاح إليه رغم أنها لم تتعود أن تفاتحه في مثل هذه الأمور.

مع الوقت أخذت ضحى تتأقلم مع حياتها بعد الزواج، بدأت تشغل نفسها بدراسة تصميم الأزياء علّه يعطي لأيامها معنى وهدفًا في تلك الحياة التي كانت بلا زوج وبلا أولاد وبلا معنى.

وتحولت كراهيتها لمدحت الصفتي إلى ما هو أسوأ، وهو عدم الاكتراث. كان موجودًا وغير موجود. أغلقت على نفسها حياتها داخل شرنقة الأزياء التي ظلت تغزل بداخلها خيوط الحرير دون أمل في أن يكون لها في يوم من الأيام أجنحة مثل بقية الفراشات، فتخرج من شرنقتها لتحلق في السماء.

(12)

«بلاك آند وايت»

تمكن عبد الصمد من الحصول على وظيفة ليلية كفرد أمن في أحد الأماكن بشارع الهرم دله عليها أصدقاؤه الذين كانوا يرتادونه. أخذ العنوان وذهب يبحث عنه إلى أن وجده في آخر شارع الهرم. بدا مظهره متواضعًا. فوق المدخل علقت لافتة تحمل اسم «كافيتريا بلاك آند وايت» وقد رُسم عليها كلبان صغيران أحدهما أبيض والآخر أسود، تماما كتلك الصورة المرسومة على زجاجة الويسكي المعروف بهذا الاسم والذي لابد أن الكافيتريا اتخذت اسمها منه. وقد اكتشف عبد الصمد بعد ذلك أن الكافيتريا لا تقدم هذا النوع من الويسكي وأنها لم تتقدم للحصول على رخصة لتقديم الخمور أصلًا لأنها كانت تحصل على مكسبها بطريقة أخرى. كانت كافيتريا من نوع خاص لم يكن عبد الصمد يعرفه أو يتصور وجوده.

وقف عبد الصمد في جانب داخل الكافيتريا ينتظر مقابلة المدير الذي كان سيلحقه بالعمل فشاهد الزبائن من الشباب وقد جلسوا مع فتيات جلسات حرة بعض الشيء. وجد من الشباب من دسوا أيديهم داخل صدور الفتيات اللاتي يجلسن معهم، فتصور في البداية أن الفتيات صديقات هؤلاء الشباب، وأنهم أتوا سويا لهذا المكان كي يكونوا على راحتهم. لكنه اكتشف أن جميع الفتيات يعملن مضيفات في الكافيتريا وأن الشباب يأتون وحدهم، فبدأ

يتذكر ما كان يرويه له أصدقاؤه من مغامرات في هذا المكان والتي لم يكن يعيرها آنذاك اهتمامًا.

لم تكن الكافتريا تقدم للشباب إلا العصائر والمشروبات الغازية التي يدفعون فيها عشرة أو عشرين جنيهًا للشخص الواحد وكانت المضيفات يرتدين الملابس القصيرة التي كانت تظهر مفاتنهن، وكن يجالسن الشباب مرتادي المكان ويسمحن لهم بملامسة أجسادهن. كانت الفتيات يأخذن يد الشباب ويضعنها على صدورهن أو داخل ملابسهن ليتحسسوهن كما يشاءون. وبالمثل كانت الفتيات تضعن أيديهن بين فخذي الشباب من الزبائن ويلامسن أعضاءهم سواء من فوق الملابس أو من تحتها. وقد تستمر هذه العملية إلى أن يصل الشاب إلى إتمام شهوته داخل «الكافيه» وكأنه في بيت دعارة ولكن دون أن يخلع أي طرف ملابسه بالكامل، فإذا ما دخلت شرطة الآداب أو شرطة السياحة في أي لحظة أصلح الجميع من هندامه بسرعة فلا تجد الشرطة إلا زبائن جالسين على طاولات يتناولون مشروباتهم بشكل عادي.

يا لها من فكرة جهنمية تعبر عن عبقرية العقل المصري الذي يستطيع أن يتلاعب بكل القوانين المقيدة لحريته ويحقق ما يريد بالرغم من العوائق والقيود. أعجبت عبد الصمد الفكرة وأحس أنه في مكان أكثر أمنًا من الملاهي الليلية المجاورة والتي كانت تشهد الكثير من الخناقات والكبسات من الشرطة وهو لم يكن يريد أن يجازف بذلك قبيل سفره.

أخذ المدير يتفحص قوامه النحيف، وبشرته المائلة للسمرة. لم يكن به ما يميزه إلا نظرة عينه الحادة الآسرة. كأنها عين الطيور الجارحة التي تلحظ الفريسة على بُعد أميال. قال له: «نعم؟.. ماذا تريد؟». رد عبد الصمد:

«جئت من أجل وظيفة الأمن». صاح فيه المدير: «ألم تنظر لنفسك في المرآة؟ أهذه هيئة «بودي جارد»؟ إن منظرك لا يمكن أن يردع أحدًا، إنه دعوة صريحة لأن يعتدي علينا الهجامة وبلطجية الشارع كلهم».

ظن عبد الصمد أن المدير لن يعينه، فإذا به يقول له: «نظرك قوي؟». رد عليه: «ستة على ستة». فقال: «إذن ستقف على باب الكافتيريا وإذا لاح لك طيف شرطي أو ما شابهه تدخل بسرعة لتخبرني أنا شخصيًا في ثلاث ثوان. إذا كانوا أربع فسيتم فصلك في الحال».

نظر إليه المدير وكأنه ينتظر أن يرفض تلك المهمة. لكن عبد الصمد سأله: «أهذا كل ما في الأمر؟». قال له: «هذا كل ما تقدر عليه».

كان عبد الصمد يذهب في الصباح إلى عمله ويمضي الجزء الأكبر من الليل في «الكافيه»، وكان يقبض مكافأته يومًا بيوم.

في آخر مكالمة لعبد الصمد مع الشيخة قبل أن يلتحق بالعمل في «الكافيه» كان قد أخبرها بأنه ليست لديه أي مشكلة في دفع المبلغ المطلوب. فقالت له:«لقد اقتربنا بذلك من تحقيق حلمنا بالزواج» وقالت له إنها أصبحت تعد الدقائق والثواني إلى أن يصل إلى الكويت، ثم أخبرته في المكالمة ذاتها أن الرجل الذي أعد له عقد العمل سيتصل به قريبًا ليتسلم منه مبلغ الخمسة آلاف جنيه وأنه بمجرد توقيع العقد سيسلمه الرجل تذكرة السفر.

وتوقف عبد الصمد عن الاتصال بالشيخة حالما بجمع الخمسة آلاف جنيه، وبمجرد أن أكمل المبلغ توجه إلى محل «السايبر كافيه» وجلس على الفور أمام «الكمبيوتر» وفتح عنوانه البريدي فوجد رسالتين من الشيخة تقول في الأولى: «أين أنت؟ اشتقت إليك. منذ فقدت تليفونك المحمول وأنا أفتقد صوتك الحنون. انتظرت أن ترسل لي رسالة بالأمس لكنك لم تفعل.

أرجوك رد عليَّ. أرجوك أرسل لي رقم تليفون أطلبك عليه فأنا كما قلت لك لا أستطيع أن أعطيك رقمي لأن أخي يعيش معي ولن يقبل بعلاقتنا إلا بعد الزواج؛ لذلك أريد أن أعجل بقدومك حتى نتزوج ونعيش سويا. أرجوك ادفع المبلغ المطلوب للحاج عبد المعطي عندك في مصر بأسرع ما يمكن وتعال إليَّ. إني أتحرق شوقًا إليك».

وتلت الرسالة الأولى رسالة ثانية أرسلت في اليوم التالي : «أكاد أجن. أرجوك لا تفعل بي ذلك. اليوم جاءني مدير أعمالي يعرض عليَّ بعض الصفقات فلم أفهم كلمة واحدة مما قال وفي النهاية احتديت عليه وأنهيت المقابلة. أرجوك تعال إليَّ لتتولى أعمالي التي لا أعرف كيف أديرها ولا أفهم كيف يديرها مدير أعمالي هذا. أرجو أن تكون قد قابلت الحاج عبد المعطي وأنهيت هذا الموضوع فأنا أتوق إليك. إلى دفء صدرك. إلى حرارة جسدك. لا تتركني هكذا. أرجوك».

كتب عبد الصمد الرد على الفور: «حبيبتي الغالية: كم سعدت برسالتك. كأنها تعبر عن حالي فأنا الذي أتحرق شوقًا إليكِ. لقد أعدت العدة للمجيء إليك. كانت عندي بعض الأشغال التي كان عليَّ أن أنهيها قبل السفر. ولولا هذا ما انشغلت عنك. لكن كله من أجلك. سأتصل غدًا أو بعد غد على الأكثر بالحاج عبد المعطي لأنهي كل شيء وسأكون عندك في اليوم التالي يا حبيبتي. لن تحتاجي بعد ذلك لأحد في حياتك. سأكون أنا حبيبك وزوجك ومدير أعمالك. حتى شقيقك لن أجعلك تحتاجينه. إنني أريدك لي وحدي ولنكن وحدنا في البيت. نحن الاثنان فقط» .

لم يعرف ماذا يضيف من كلمات فقرر أن يكتفي بما كتب. ضغط على زر الإرسال فانطلقت الرسالة إلى عنوان الشيخة. قام من مكانه وهمَّ بالخروج

حين أوقفه صاحب المحل: «ما الحكاية يا سي عبد الصمد؟ إن تلك هي المرة الرابعة التي تستخدم فيها «النت» ولا تدفع شيئًا». قال: «لقد قلت لك إنني سأدفع لك كل شيء دفعة واحدة» فسأله الرجل: «متى؟». قال: «يوم الخميس سأقبض راتبي وأدفع لك على الفور ما تريده وأكثر». قال الرجل: «لا أريد أكثر. أريدك أن تدفع فقط ما عليك». قال عبد الصمد: «يوم الخميس إن شاء الله» وخرج من المحل فنفث الرجل زفيرًا كبيرًا وهو يقول: «اللهم طولك يا روح».

(13)

الثقب الأسود

لم تلتق ضحى ثانية بالدكتور أشرف خلال وجودها في روما. أمضت يومين تتجول بين محال الأزياء، متفادية مكالمات السفير وزوجته بإغلاق تليفونها. ومع ذلك وجدت رسالة في الفندق بأن زوجة السفير سألت عنها.

كانت تريد أن تختلي بنفسها. شعرت برغبة شديدة في أن تتحرر من كل التزاماتها. مشت في شوارع المدينة على غير هدى. كان ذهنها مشغولًا فكانت أقدامها تقودها كيفما اتفق، من شارع إلى شارع، فإذا شعرت بالجوع تناولت شيئًا في أقرب مطعم أو كافتيريا ثم خرجت ثانية إلى شارع تكمل مسيرتها، وكأنها تبحث عن شيء ما لم تجده في مكان ما لا تعرفه.

استرجعت حياتها كلها. ماذا فعلت منذ وعت على هذه الدنيا. كانت سعيدة بعملها الذي كان يشعرها بقيمتها في الحياة؛ لذلك لم تفهم سبب الفراغ الذي ظل يتسع بداخلها مع مرور السنين وكأنه الثقب الأسود الكبير ذو القوة المغناطيسية الهائلة والذي يبتلع كل شيء من حوله في الفضاء.

وجدت نفسها في حدائق «ڤيلا بورجيزي». ما الذي أوصلها إلى هنا؟ كانت الساعة قد قاربت وقت الغروب. لكن ضياء الشمس في هذا اليوم من

الربيع كان لا يزال يتخلل الأشجار الكثيفة، ليصنع شبكة ضوئية تتجاور فيها بقع الظل والنور على عشب الحديقة الأخضر الممتد أمامها بلا نهاية.

جلست على أول مقعد صادفته. وهي متعبة من السير طوال اليوم. كان المقعد مظللا، لكن النور كان يحيط به من الجانبين. عما قريب سيكتنفها الظلام حين تغيب الشمس، كما يكتنف الظلام حياتها التي كانت لحظات السعادة فيها لا تدوم أكثر من تلك اللحظات التي تمضيها هذه البقع الضوئية الصغيرة الهاربة من ظلال الأشجار إلى العشب الأخضر.

لم تمض في الحديقة أكثر من نصف الساعة قبل أن يختفي كل الضياء من حولها وتتحول خضرة العشب إلى اللون الأسود، وتتحول الأشجار المحيطة بها إلى أشباح مخيفة تلوح لها بأغصانها كلما هبت نسمات المساء، أو ترتعد خائفة وسط ظلام الحديقة، وظلام الليل، وظلام الثقب الأسود الكائن في قلبها والذي يكاد يبتلع حياتها كلها.

خرجت من الحديقة واستقلت لأول مرة منذ وصولها إلى روما سيارة أجرة. عادت إلى الفندق منهكة. كان تعبها جسمانيًا بقدر ما كان إرهاقًا نفسيًا. صعدت إلى غرفتها على الفور وارتمت على السرير. لم تجد في نفسها رغبة لتناول العشاء، ولم تكن راغبة في الاتصال بزوجة السفير ردًا على الرسالة التي تركتها لها.

صحت في اليوم التالي وقد شعرت بأن رأسها صار كالبالون المنتفخ بالهواء، أو كالكرة التي تلقت ركلات اللاعبين طوال الليل.

لم تفتح شباك غرفتها المطل على النافورة كما كانت تفعل كل يوم كي تستنشق نسيم الصباح العليل.

بعد أن نهضت من مرقدها عادت بعد دقائق فارتمت عليه ثانية. ماذا ستفعل اليوم؟ وأين ستذهب؟ غفت مرة أخرى رغما عنها إلى أن أيقظتها بعد دقائق أصوات السائحين التي بدأت تتعالى في الميدان.

أين ستذهب اليوم؟ هل تتصل بزوجة السفير؟ بالتأكيد لا. لكنها لم تكن تريد أن تمضي مزيدًا من الوقت في شوارع المدينة. لقد أعيتها الشوارع، وأيقظت في نفسها آلامًا كانت كامنة. ستذهب إلى أحد المتاحف.

ما إن نزلت إلى الشارع حتى بدأت السماء ترش عليها رذاذًا طفيفًا. «كيف ذاك ونحن في الربيع؟» سألت حارس الفندق الواقف على الباب. قال مبتسمًا: «إنه مطر الربيع يا سيدتي. أو إن شئت هو بقايا مطر الشتاء تنثرها السحب وراءها لتفسح الطريق لسماء الصيف الصافية». قالت: «على أية حال هذا لن يضايقني، لأنني سأمضي اليوم في المتحف». فرد الرجل بسرعة: «ما هي إلا دقائق وتجدينها قد توقفت».

في الشارع استمتعت بقطرات المطر الخفيفة وهي تتساقط على شعرها وتلامس وجهها. كانت الشمس مشرقة تتخلل أشعتها. تلك القطرات البللورية الصغيرة وكأنها خيط من نور لضمت فيه حبات الماء الصغيرة لتصنع عقدًا مسحورًا لا يراه أحد غيرها.

قررت أن تمشي قليلًا حتى تستمتع بهذا الجو الفريد الذي جمع بين شمس الربيع الحانية وقطرات الشتاء الصافية. رفعت وجهها إلى السماء تريد أن تلاقي الشمس والمطر معًا فنسيت لوهلة محنتها.

في المتحف الوطني الروماني مشت بين القاعات والأروقة كما مشت في الشوارع في اليوم السابق. توقفت أمام تمثال رخامي كبير للقيصر أغسطس الذي يعود تاريخه إلى القرن الأول الميلادي. نظرت إليه طويلًا. كانت تشاهده

على الطبيعة لأول مرة، لكنها كانت تعرفه من دراستها لتاريخ الأزياء باعتباره مثالًا جيدًا للرداء الروماني القديم المعروف باسم «التوجا». كان الزمن قد أسقط يدي التمثال فلم يبدُ تحت رأس القيصر إلا رداؤه الرومانيّ وكأنه صنع خصيصًا كي تعرض عليه تلك العباءة الرومانية.

لقد غزت «التوجا» الرومانية كل البلاد التي خضعت للإمبراطورية الرومانية. أما في مصر فقد تأثر الزي المصري بزي الرومان بقدر ما تأثر الرومان بالزي المصري ذي الشخصية المميزة والمعالم المحددة.

لماذا لا تصمم أزياء مستوحاة من الزي المصري القديم الذي بهر العالم وصمد أمام أزياء كل الغزاة من الفرس إلى الرومان؟ إن الأزياء المصرية القديمة جزء أساسي من أي دراسة للأزياء، وقد كان هذا ما دفع جون جاليانو مصمم بيت أزياء كريستيان ديور لإقامة عرض كامل منذ بضع سنوات مستوحى من الأزياء المصرية القديمة، وقد أثار في ذلك الوقت اهتماما عالميا غير مسبوق.

تذكرت فراشتها المصرية الجميلة ذات الألوان الخلابة. سيطرت على ضحى لأول مرة قضية الهوية في الأزياء بعد أن كانت تهرب منها، متصورة أن الطريق إلى العالمية يكون بتقليد أزياء الغرب. شعرت بأن نظرتها للأزياء بدأت تتغير، بل إن نظرتها للحياة كانت تمر بمرحلة تحول، وربما كان هذا هو ما جعلها تشعر بذلك الفراغ الذي كان يحتل كيانها، ويملأها شعورًا بالوحشة والكآبة. لكنها كانت تشعر في الوقت ذاته بأنها في حالة تحول. إن لحظات المخاض دائما قاسية على النفس، يشعر الإنسان فيها بالثقل الذي يحمله فوق ظهره، وبالظلمة التي تحيط به إلى أن يعبر النفق المظلم فيخرج إلى الهواء الطلق والنور.

عادت صامتة إلى الفندق. لم تخرج في المساء. لم تتصل بأحد. لم تكن بها رغبة لمقابلة أحد. عادت إلى كتاب «الفراشات المصرية». ظلت تنظر إلى فراشة «النمر» دون أن ترفع نظرَها عنها. كانت هناك فراشة أخرى بيضاء تمامًا وصغيرة جدًّا بالمقارنة لفراشة «النمر». توقفت عندها هي الأخرى. كان اسمها فراشة الكرنب البيضاء. قال الكتاب إنها أكثر الفراشات انتشارًا في مصر. لكن فراشة «النمر» هي التي خلبت لُبَّها. كانت كلما أعجبتها إحدى الفراشات عادت إلى فراشة «النمر» فوجدتها هي الأجمل وهي الأروع.

أحست أنها هي تلك الفراشة. كم كانت تتوق لأن تكون لها أجنحة تطير بها مثل الفراش. أجنحة حقيقية وليست زيًّا من القماش تلبسه بضع ساعات فيوحي بمظهر الفراشة ثم تخلعه فتعود بلا أجنحة. أدركت أن الفراشة بلا أجنحة مجرد حشرة مثل بقية الحشرات، لكن الجناحين يرفعانها إلى مرتبة أخرى ويتوجانها أجمل المخلوقات وأكثرها سحرًا.

قرأت أن جسد فراشة «النمر» ذا اللون الأسود الداكن المنقط بالأبيض له مذاق مر، وهو سام لمن يحاول التهامه من الطيور أو الحيونات الأخرى. كانت كلما قرأت شيئًا عن تلك الفراشة أحست بأنها تقرأ عن نفسها، أليس هناك من يعتقدون في تناسخ الأرواح؟ إذا كان ذلك صحيحًا فربما كانت هي فراشة مصرية من نوع «النمر» في حياتها السابقة. أو ربما هي تلك الفراشة الآن في هذه الحياة.

(14)

طاقة نور

هُرع حسن إلى أيمن بمجرد أن قابله في المعهد: «أين كنت يا أيمن؟ لقد أمضيت طوال أمس أحاول الاتصال بك لكن تليفونك كان مغلقًا طوال الوقت حتى قلقت عليك. لو لم أجدك اليوم في المعهد كنت سأذهب إلى بيتك لمعرفة ما ألَمَّ بك». قال له أيمن إنه فقد تليفونه المحمول. هذا كل ما في الأمر. فقال له حسن على الفور: «إن لديَّ أخبارًا سارة لك، لقد عثرت أمي على اسم والدتك وقد طلبت أن تقابلك. عد معي إلى المنزل بعد المعهد لنتناول الغداء سويا ..» لم يصدق أيمن أذنيه. رأى طاقة نور تنفتح أمامه. قال لحسن: «أرجوك لا داعي للانتظار. لنذهب إلى البيت الآن. أنت لا تعرف حالة الضياع التي أنا فيها. إنني لم أعد أنام الليل». فرد عليه حسن: «لكن أمي لم تعد من عملها بعد وهي تنتظرك على الغداء فلنكمل يومنا ثم نذهب سويا إلى البيت، لقد طلبت مني أن أخبرك أنها أعدت لك اليوم فتة العدس التي تحبها».

كان ذلك اليوم هو أطول أيام الدراسة بالنسبة لأيمن. محاضرة وراء الأخرى وكلام لا ينتهي. ظل أيمن طوال الوقت يسأل حسن: «ألم تقل لك الحاجة أية تفاصيل؟» فيؤكد له حسن أنه لا يعرف إلا أنها وجدت اسم أمه، وأن عليه أن ينسى الموضوع قليلًا ويركز على المحاضرات، وقد حاول أيمن

ذلك أكثر من مرة لكنه لم يفهم شيئًا مما قيل وكأنه في كلية أخرى يستمع لمحاضرات في تخصص آخر غير تخصصه.

كانت محاضرة «المجتمع العربي» هي الأخيرة: «المجتمع العربي مجتمع واحد بالرغم من ترامي أطرافه جغرافيا ما بين المحيط والخليج. فالتاريخ واحد والثقافة واحدة ومن ثم فالهوية واحدة. من هنا يأتي انتماء مصر إلى الأمة العربية فهي مركز مهم من مراكز تلك الهوية لأنها في موضع الأم بالنسبة لهذه الأمة. والقطيعة بين مصر والأمة العربية هي قطيعة بين أفراد الأسرة الواحدة. قطيعة الأبناء عن الأم».

بعد انتهاء المحاضرة أقبل بعض الطلبة يقولون لحسن: «سنذهب لأصدقائنا في كلية الهندسة فهل ستأتي معنا؟» قال حسن: «طبعًا. إن علينا جميعًا أن نقف معهم». سأل أيمن حسن: «أليس لدينا موعد مع والدتك؟» قال:«نعم لكنك تعرف أن الحاجة لا تعود من عملها إلا في الخامسة بعد الظهر والآن الساعة الثانية. ثم إن زملاءنا في كلية الهندسة يواجهون موقفًا صعبًا، فقد قام الأمن بحل اتحاد الطلبة الذي انتخبوه وهم ينظمون اليوم اعتصامًا بالكلية، فلماذا لا تأت معنا لنناصرهم؟ إنها ليست قضية طلبة الهندسة وحدهم بل قضيتنا جميعًا».

لم يمانع أيمن في مناصرة طلبة كلية الهندسة من حيث المبدأ. ثم إن جامعة القاهرة في طريقهما إلى دار السلام حيث منزل حسن.

في الطريق من المعهد عبر شارع الجلاء إلى محطة المترو قال حسن لأيمن: «أنت لم تشارك معنا في أي مظاهرة حتى الآن ألا تعرف ما يجري في غزة والعراق والسودان؟ ألا تعرف ما يجري في مصر»؟ فرد أيمن: «ماذا تقصد بما يجري في مصر»؟ قال حسن: «أقصد الغلاء والفساد وإهمال الحكومة للناس

ومشاكلهم». سكت أيمن قليلًا ثم عاد يقول: «الحقيقة يا حسن أن مشكلتي تؤرقني ولا أجدني قادرا على تركيز انتباهي على أي شيء آخر. أنا لا أستطيع حتى المذاكرة. أريد أن أعرف من أنا. أريد أن أعرف أصولي. أريد أن أجد أمي. لا تقارن بيني وبينك فأنت..» فقاطعه حسن: «أنا أيضا أبحث عن أمي يا أيمن. الأم الكبرى. أمنا جميعًا. وكما تعرف أنت اسم أمك أنا أيضا أعرف اسمها،أطالع أخبارها في الصحف وأقرأ عنها في الكتب، لكنني أبحث عنها من حولي فلا أجدها. إنك تبحث عن تحقيق ذاتك مثلما أبحث أنا أيضا عن تحقيق ذاتي. البلد كله يبحث عن تحقيق ذاته».

وصلا إلى كلية الهندسة فقابلا على بابها زملاءهم من المعهد. كانت هالة عبد الشهيد صديقة حسن هناك هي الأخرى. قالت لهم إن الاعتصام أُلغي ولم يسمح للطلبة بدخول المدرج الكبير بالكلية. كان مدخل الكلية يموج بالطلبة الذين كانوا يهتفون ضد حرس الكلية الذي قام بإخلاء المدرج، ويطالبون بعدم تدخل الأمن في شئون الطلبة.

فجأة خرج رجل طويل ذو لحية سوداء وشارب كثيف. التف حوله الطلبة. كان الدكتور أشرف الزيني الأستاذ بالكلية والناشط السياسي المعروف. قال مخاطبًا الطلبة: «إن ما حدث من إدارة الجامعة تصرف غير مقبول، علاوة على أنه غير قانوني. أنتم على حق وإدارة الجامعة المتوالسة مع الأمن على خطأ. إذا كنتم تريدون أن تعبروا عن رأيكم فسيكون لكم ما تريدون. لقد منعوكم من دخول الكلية، فليكن اعتصامكم هنا في الشارع وأنا سأكون أول المعتصمين. سيكون اعتصامًا رمزيًا لمدة ساعة واحدة حتى لا نعطل الشارع طويلًا. سيكون الاعتصام رسالة للمسئولين علهم يفهمونها قبل أن يتفاقم الوضع أكثر من ذلك».

هتف الطلبة بحياة الدكتور أشرف الذي واصل حديثه قائلا: «قد نتعرض في اعتصامنا هذا للهجوم بشكل أو بآخر، لكني أسألكم ضبط النفس والثبات».

كان مشهد الطلبة مهيبًا وهم يقفون متراصين وممسكين بأيدي بعضهم البعض، ووقف معهم أيمن وحسن وهالة وزملاؤهم الذين أتوا من معهد التعاون.

أحس أيمن بالرضا عما قام به. كانت التجربة جديدة تمامًا عليه. نسي مشكلته وتفاعل مع إحساس زملائه وهو يشاركهم اعتصامهم.

بعد انتهاء الاعتصام توجه أيمن مع حسن مرة أخرى إلى محطة المترو وعاد أيمن يفكر فيما ينتظره عند الحاجة حكمت. زاد عدد المحطات على ذي قبل وزادت الدقائق التي يمضيها «المترو» في كل محطة.

عاود أيمن سؤاله لحسن: «قل لي فقط، هل وجدت الحاجة اسم أمي بين الأحياء أو في شهادات المتوفين؟» قال له صديقه :«لا أعرف. على كل حال فبعد محطتين سنصل إلى المنزل وتعرف كل شيء على وجه اليقين، فكل ما قالته لي أمي هو أن أخبرك بأنها وجدت اسم أمك، وطلبت مني أن أدعوك عندنا لتخبرك بالتفاصيل».

وبعد دهر أمضاه أيمن في النزول من «المترو» والسير على الأقدام إلى منزل صديقه المجاور للمحطة وصل أخيرًا إلى منزل حسن وصعد معه إلى الشقة ومع كل درجة من درجات السلم كانت ضربات قلبه تزداد سرعتها.

فتحت الحاجة حكمت لهما الباب وبادرت على الفور تحتضن أيمن وترحب به كأنها لم تره منذ مدة، وعلى الفور أعدت لهما طعام الغداء ثم عادت بعد قليل تقدم لهما الشاي، وكان أيمن على وشك أن يقول للحاجة حكمت

وهي تضع له السكر في الشاي: «لا أريد شايًا ولا سكرًا، أريد الحقيقة التي ضاعت مني» حين قالت له الأم: «خلاص يا حبيبي ما ضاع منك قد وجدته لك. لقد عثرت على اسم والدتك، وهي على قيد الحياة وتعيش في طنطا. لقد أحضرت لك العنوان المسجل في بطاقتها الشخصية».

اهتز كوب الشاي في يد أيمن واغرورقت عيناه بالدمع وشعر بغصة في حلقه تمنعه عن الكلام، فوضع الكوب على المنضدة قبل أن ينسكب الشاي من بين يديه المرتعشتين بينما واصلت الأم حديثها:«إن اسمها الرباعي هو «آمنة عبد الرحيم أحمد السعدي» وهي مقيمة في حارة السقا رقم 9 المتفرعة من شارع السيد البدوي، لكن هناك شيئًا يجب أن تعرفه وهو أنها متزوجة واسم زوجها ..»، فقاطعها أيمن وهو يهم بالنهوض: «لا يهم اسم زوجها. شكرًا على كل ما فعلته من أجلي يا حاجة و ..» قالت الأم : «اجلس قليلا يا ابني إنك لم تتناول الشاي بعد. إلى أين أنت ذاهب؟» قال وهو يقبلها ويقبل صديقه حسن: «إنني ذاهب إلى أمي».

(15)

القـــرار

أخيرًا جاء اليوم الكبير. اليوم الذي كانت ضحى تنتظره منذ فترة طويلة. اليوم الذي ستعرض فيه تصميماتها في صالون ميلانو الشهير. اليوم الذي كان سيفتح لها باب العالمية وسط بيوت الأزياء الكبرى.

انشغلت أول يومين لها في ميلانو بترتيبات العرض. كان عليها أن تعرف من المنظمين متى يحين دورها، وماذا عليها أن تفعل، ثم كان عليها أن تشرف على «توضيب» أزيائها على أجساد العارضات الإيطاليات اللاتي كن سيرتدينها أثناء العرض. لم تنم الليل. يا له من مجهود ذلك الذي تستلزمه مثل هذه العروض التي يأتيها الجمهور في النهاية فتعجبه أو لا تعجبه. كانت مدفوعة كالسائرين في نومهم بلا تفكير. كانت هناك مهمة كبرى عليها أن تنجزها في وقت محدد وإلا استبعدت من العرض.

وصلت إلى صالة العرض صباح يوم الافتتاح وهي تكاد ترتجف من شدة الاضطراب الممزوج بالخوف والترقب. علمت من المسئولين عن الصالون أن موعد عرضها في اليوم الثاني وليس يوم الافتتاح. تنفست الصعداء لكن اضطرابها لم يقل. كانت أزياؤها كلها قد وصلت من القاهرة وكان عليها أن تبدأ في تجهيزها.

رن تليفونها المحمول. كانت صديقتها عفت تقول لها: «لقد جاءت الليلة الكبيرة «جود لاك» وربنا معك». ثم اتصل بها مدحت بعد قليل يقول لها إن رئيس الوزراء سيصل إلى روما اليوم والسفير لابد سيقيم له احتفالًا بالسفارة، فعليها أن تظل على اتصال بالسفير «حتى تكون في الصورة» على حد قوله. ردت عليه في شيء من الحدة: «أية صورة؟ أنا لست في روما أصلًا. لقد وصلت ميلانو. فافتتاح الصالون الليلة». قال: «متى تعودين إلى روما؟» قالت: «لن أعود إلى روما. سأستقل الطائرة من هنا إلى القاهرة مباشرة». بعد أن انتهت المكالمة أغلقت ضحى تليفونها ثانية حتى لا تأتها مكالمات أخرى تعطلها عن عملها أو تزيد من توترها.

تفقدت الأزياء التي وصلت من مصر، أخرجتها من صندوق الكرتون الذي شحنت فيه وأخذت تتفحصها قطعة قطعة. كانت إلى جانبها إحدى المساعدات العاملات في الصالون تقوم معها بإحصاء عدد الفساتين حتى تحدد العدد اللازم من العارضات. قالت لها الفتاة: «الألوان التي اخترتها جميلة للغاية، هل هي من القطن المصري؟» قالت: «ليس كلها، بعضها حرير صناعي مستورد من الخارج». قالت الفتاة: «إن لديكم في مصر أجمل الأقطان في العالم». ودت لو قالت للفتاة إن أزياءها في المرة القادمة ستكون كلها مستوحاة من مصر وأنها ستكون من الأقطان والحراير المصرية، لكنها لم ترد.

انتهت من عمل المطلوب منها وكان عليها أن تعود بعد الظهر إلى قاعة العرض لترى أزياءها على أجساد العارضات فتضع اللمسات الأخيرة الخاصة بقطع الحلي التي سترتديها العارضات، ولتختار مع مصفف الشعر التسريحات التي تتوافق مع كل زي.

خرجت من صالة العرض يخالجها شعور غريب بأنها لم تحقق ما تريد. لم تكن هذه الأزياء تعبر عنها، ودت لو استطاعت تصميم أزياء أخرى قبل افتتاح الصالون. أزياء تحمل مدلولًا آخر.

وصلت إلى الفندق الذي تم الحجز فيه لجميع ضيوف الصالون. كانت ساعة الغداء ومعظم الضيوف تجمعوا في مطعم الفندق. لم تجد في نفسها رغبة لتناول الطعام، ولم تكن بها رغبة لمقابلة أحد. وجدت الدكتور أشرف في بهو جانبي يتناول القهوة مع صديقه أستاذ الجامعة الإيطالي وزوجته، وكان معهم شاب آخر أدركت أنه لابد ابنهما الذي يعمل في الصالون.

رحب بها الدكتور أشرف كثيرًا بمجرد أن رآها، وقدم لها ابن صديقه الذي قال لها: «إننا في انتظار الاستمتاع بتصميماتك المبتكرة في الصالون». شكرته وهمت بالانصراف حين قال لها الدكتور أشرف: «لقد كنت أستطلع رأي أصدقائي في التصميم الجديد الذي وضعته لقاعة الاحتفالات بالمدينة الجامعية بالقاهرة ، ويهمني رأيك كفنانة» . نظرت ضحى إلى الرسوم الموضوعة على المنضدة أمامهم وهي تستمع إلى صوت الدكتور أشرف يقول: «إنها تزاوج ما بين المعمار المصري القديم والمعمار الإسلامي ولكن في شكل حديث يتواءم مع الغرض من المبنى».

نظرت مليًّا إلى الرسوم فبهرت بجمالها. قال أستاذ الهندسة الإيطالي: «لقد اقترحت على الدكتور أشرف أن يتقدم بهذا التصميم المبتكر لنيل جائزة أغاخان الدولية في العمارة، فهو مثال للمعمار الحديث النابع عن التراث». وردت زوجته: «إنكم يا مصريون عباقرة».

لاحظ الدكتور أشرف الحزن في عينيها، والشحوب في وجهها، فسألها على الفور: «ماذا بك؟» قالت: «لا شيء، مجرد إرهاق بسيط»، ثم غيرت الموضوع قائلة: «التصميمات فعلًا رائعة». فرد عليها: «إننا نتطلع جميعًا لتصميماتك في الصالون هذا المساء». قالت له إن موعدها غدًا وليس اليوم، فرد الابن ماريو: «لكنني أنا سأشاهدها في «البروفة» بعد ظهر اليوم».

أحست ضحى بأن الجميع ينتظرون منها شيئًا آخر غير ما أعدته. لكن ما كان يقلقها هو شعورها بأن ما ستقدمه لم يعد يتوافق مع ما تريده. لقد اجتهدت كثيرًا في عمل هذه التصميمات والآن لم تعد ترضيها. هي مسخ لا طابع له ولا هوية. كانت سعيدة في القاهرة بما أعدته من أزياء، لكن ما إن وصلت إيطاليا حتى تغير كل شيء.

استأذنت من الأصدقاء قائلة إنها متعبة وتريد أن تستريح قليلًا قبل العودة للصالون. كانت بالفعل تشعر بصداع يكاد يشق رأسها نصفين. صعدت إلى غرفتها وتناولت الدواء الذي كانت معتادة عليه كلما هاجمها ذلك الصداع اللعين.

ماذا حدث لها؟ ظلت تسأل نفسها. يقال إن ممثلي المسرح يشعرون دائمًا بحالة من الخوف والقلق قبل الصعود إلى المسرح في الليلة الأولى للعرض، وهناك منهم من قد يعجز تمامًا عن مواجهة الجمهور في تلك الليلة، أو من يصاب بإسهال حاد أو بصداع مثل ذلك الذي كانت تعاني منه الآن. لابد أن هذا هو ما حدث لها. إنها حالة طارئة وستزول بمجرد أن تشاهد أزياءها على أجساد العارضات. عندئذ سيتبدد خوفها ويزول ترددها وتستعيد ثقتها بنفسها وبأزيائها التي أمضت العام المنصرم كله تفكر فيها وتعد خطوطها وتختار لها الأقمشة.

فتحت شنطة الأدوية الصغيرة التي كانت لا تسافر إلا بها وتناولت حبة مهدئة أيضًا حتى لا تنهار أعصابها بسبب تلك الحالة الغريبة التي انتابتها. بعد قليل شعرت بشيء من الخدر يسري في أوصالها وإن ظل الصداع يمسك برأسها. كان مما يزيد من ألمها أنها كانت وحدها تمامًا في هذا الموقف. لم يكن هناك من تستطيع أن تتحدث معه في هذا الموضوع فيهدئ من روعها أو على الأقل يشاركها محنتها التي لم تكن تعرف سببها.

اتصلت من تليفون غرفتها بجابرييلا في روما. لم يكن لديها ما تقوله لها. شكرتها مرة أخرى على صحبتها على العشاء ليلة وصولها من القاهرة، وقالت إنها تتمنى أن تراها في مصر قريبًا. سألتها جابربيلا عن عرض الأزياء فقالت إن موعدها في اليوم الثاني، فتمنت لها نجاحًا كبيرًا واستحسانًا من الجمهور الإيطالي.

فتحت تليفونها المحمول فوجدت ثلاث رسائل صوتية وردت أثناء كان التليفون مغلقًا، الأولى من عفت تخبرها فيها بأنها قرأت اليوم في إحدى المجلات في مصر خبرًا يقول إن أزياءها أصبحت عالمية، وأنها تعرض الآن في أهم صالونات الأزياء في العالم. والثانية من مشيرة تطمئن فيها عليها، والثالثة من مرفت زوجة شقيقها طلعت، تتمنى لها حظًا سعيدًا في الصالون.

أحست أن بها رغبة للحديث مع شقيقها. لم يحدث من قبل أنها فاتحته في شيء يقلقها لكنها شعرت في تلك اللحظة أنه أقرب الناس إليها. لم تفهم شعورها. قالت لنفسها إنها ربما تحاول التعلق بأية قشة تنتشلها مما هي فيه.

لم تستطع الراحة، تصفحت كتاب «الفراشات المصرية». وجدت فيه صورة لجدارية المقبرة التي رسم عليها الفنان المصري القديم صورة تلك الفراشة، كانت المقبرة لأحد النبلاء واسمه نب آمون. قال الكتاب إن هناك 58 نوعًا من الفراشات مصرية الأصل وأن هذا العدد ضئيل بالنسبة لبقية الدول وأن السبب في ذلك هو الطبيعة الصحراوية للبلاد . على أن فراشات مصر قد تأقلمت على تلك الظروف الصعبة واستطاعت أن تواصل حياتها وأن تحتفظ بجمالها رغم كل الصعاب. لقد أصبحت بعض أنواع الفراش قادرة على العيش داخل شرنقتها في أكثر أجواء الصحراء حرارة وجفافًا لفترة قد تمتد سنوات متصلة، لكن ما إن يهطل المطر الذي يجعل النباتات

تورق وتزدهر حتى تخرج الفراشة من الشرنقة بأجنحتها الملونة، وتلك من المعجزات التي لا تعرفها إلا فراشات مصر والتي تميزها عن مثيلاتها في الدول الأخرى الغنية بالخضرة.

حان موعد نزولها، فوضعت الكتاب جانبًا ومضت بخطوات ثقيلة إلى صالة العرض التي لم تكن تبعد عن الفندق. كانت كلمات الكتاب لا تزال عالقة بذهنها. أحست أنها دودة محبوسة داخل شرنقتها لا أجنحة لها. ألهذا صممت أزياءها على شكل فراشات؟ هل أرادت أن تجعل للنساء جميعًا أجنحة رائعة كأجنحة الفراشة؟ لكن الفراشات التي صممتها بدت لها بلا هوية، لم تكن فراشات مصرية، لا هي فراشة «النمر» ولا فراشة «الفهد» ولا فراشة الحمار الوحشي الزرقاء ولا حتى فراشة الكرنب البيضاء الصغيرة.

وصلت إلى صالة العرض فوجدت العارضات ينتظرنها وقد ارتدين أزياءها الفضفاضة المزركشة. قالت لها المساعدة إن مصفف الشعر قد استقر على تسريحاته وهو ينتظر رأيها، فردت عليها قائلة: «بعد قليل». أخذت تتابع العارضات وهن يذهبهن ويجئن في أزيائها دون أن تتكلم.

بعد قليل شعرت بهدوء نفسي وسكينة. كانت قد اتخذت قرارها. القرار الصعب الذي ظلت تتطلع إليه طوال عمرها والذي حالت دونه كل ظروف حياتها. قررت أن تُعمل إرادتها التي تركتها كثيرًا للآخرين يدفعون بها في أي اتجاه يريدون. لن يدفع بها أحد بعد اليوم. لن تظل دودة حبيسة داخل شرنقة. ستتحكم هي في مسار حياتها مثل إله البحر الذي سكنت إلى جواره في روما، وظلت تنصت إلى خرير مياهه ليلة وراء أخرى .

علت وجهها ابتسامة هادئة وهي تقول للمساعدة: «أريد أن أقابل مدير الصالون».

حين دخلت على المدير مكتبه كان محاطًا بعدد كبير من المساعدين وممثلي مختلف بيوت الأزياء، قالت: «آسفة أن أقتحم عليك وقتك هكذا لكن الأمر مهم. هل يمكن أن أتحدث إليك على انفراد؟» أشار إليها نحو غرفة اجتماعات جانبية وتبعها مغلقًا الباب خلفه.

ما إن جلس أمامها على طاولة الاجتماعات حتى قالت له: «الأمر لن يستغرق دقائق. أرجو أن تتفهمني. باختصار شديد لن أستطيع عرض أزيائي هذا العام». اتسعت حدقتا الرجل وهو يستمع إليها. قالت: «الأزياء التي جاءت من مصر لا تلبي احتياجاتي ولا تعبر عني بالطريقة التي أريدها وأفضل ألا أعرضها». صدم الرجل وسقط فكه الأسفل وهو يقول: «هل حدث خطأ في مصر، هل أرسلوا أزياء غير أزيائك؟». قالت: «لا، هي أزيائي، لكنها ليست ما أريد عرضه». قال: «ألا يمكن أن نصلح الأمر بأية طريقة؟». قالت: «لا عليك. الخطأ كله عندي أنا، فلا تشغل بالك بهذا الموضوع. فقط أريد أن أتأكد أن ذلك لن يسبب مشكلة بالنسبة للبرنامج الذي أعددتموه». قال: «الوقت ضيق لتعديل البرنامج، وللأسف لن تتمكني من استرداد رسوم الاشتراك. أعرف أنها ليست قليلة لكنها لا ترد». قالت: «أفهم ذلك جيدًا وأشكركم على أي حال على أنكم قبلتوني في البداية». قال: «نحن على استعداد لاستقبالك في العام المقبل».

خرجت من مكتب المدير إلى الشارع العريض. لم تستطع العودة إلى الفندق. كان قد نما لها جناحان رائعان تزينهما ألوان لم تشاهدها من قبل. ظلت تمشي بخطى متسارعة كالطائرة التي تستعد للإقلاع، ثم أحست لأول مرة في حياتها أنها تطير في الهواء.

(16)

عشاء تشايكوفسكي

انزعج أشرف الزيني حين علم بخبر إلغاء العرض الخاص بضحى الكناني. للوهلة الأولى تصور أن يكون مكروه قد وقع. بحث عنها في الردهة الرئيسية للفندق وفي المطعم فلم يجدها. سأل عنها في الاستقبال فقالوا إنها بغرفتها. بعد لحظة تردد اتصل بها في الغرفة: «أعتذر عن اتصالي بغرفتك، لكني فوجئت الآن بإلغاء العرض الخاص بك فأردت الاطمئنان عليك. كنا معًا بالأمس فقط وكان الجميع يتمنون لك التوفيق في العرض. فاعذريني أن سمحت لنفسي بإزعاجك في غرفتك. إني أتصرف بحكم أنك إنسانة شرفت بالتعرف عليها ووجدت أنه من الواجب أن أكون إلى جانبها فيما لو كانت هناك مشكلة».

انعكست الابتسامة التي ارتسمت على وجه ضحى على صوتها وهي تشكره على شهامته، مؤكدة: «ليست هناك أية مشاكل. لقد كان إلغاء العرض برغبتي الشخصية».

كان يرغب في أن يستفسر منها لماذا طلبت إلغاء العرض، لكنه لم يشأ أن يتدخل في أمورها بأكثر مما ينبغي، فاكتفى بالسؤال: «هل أنت مرتاحة لهذا القرار؟». قالت بكل هدوء: «تماما». قال: «اعذريني. إن هذا تحول كامل».

قالت: «هو التحول من طور الدودة إلى الفراشة ذات الأجنحة». قال: «ماذا؟». ضحكت وهي تقول: «سأشرح لك الموضوع حين ألقاك». قال بسرعة: «متى؟». قالت: «حين تعود من العرض». قال: «أنا لن أذهب إلى العرض. لقد اعتذرت لأصدقائي». قالت: «إذن فلنتعشّ سويًّا».

في المساء حين توجه الضيوف إلى صالة العرض كانت ضحى في مطعم الفندق مع الدكتور أشرف. كان الحزن الذي شاهده في عينيها في الصباح قد تبدد وعادت لوجهها نضارته. فقط كانت بحاجة لأن تتحدث مع أحد حول قرارها، وكان هو في شغف لمعرفة ما حدث. نظرت إلى قطعة الزبد التي وضعها النادل بعناية مع الخبز في الطبق الصغير الموضوع إلى جانبها، ثم قالت: «ما كان هناك داع لأن لا تذهب للعرض، إن ما حدث لا يستوجب كل هذا». قال صادقًا: «إن ما شجعني على قبول دعوة أصدقائي هو وجود عرض مصري في الصالون. ثم إن عرض ابنهما موعده غدا هو الآخر وليس الليلة». سكت قليلًا ثم عاد يقول: «الحقيقة أنني كنت مهتما بمشاهدة تصميماتك، كما كنت حريصًا على معرفة رد فعل الجمهور للعرض الآتي من مصر».

كان المطعم شبه خال نظرًا لانصراف معظم نزلاء الفندق إلى حفل الافتتاح. كانت إضاءته الهادئة تنبعث من لمبات صغيرة مثبتة على حوائط القاعة، يغلف كلًّا منها غطاء ورديٌّ نشر لونه الشاعري في جميع أرجاء المكان.

حاولت أن تقطع بسكينها قطعة من الزبد فوجدتها جامدة تماما وكأنها مثلجة. وضعت السكين مكانها بعناية، وفي الخلفية انسابت موسيقى جميلة كان أشرف هو الذي بادر بالتعليق عليها: «كم هي جميلة تلك الموسيقى!». قالت ضحى: إنها «نزوة إيطالية» لتشايكوفسكي. ظلَّا لفترة يستمعان للموسيقى في صمت، ثم سألته: «لماذا كنت حريصا على مشاهدة أزيائي

رغم أنك رجل سياسة؟». قال: «أنا مهتم جدا بكل ما يتعلق بصورتنا في الخارج: كيف نبدو أمام العالم، وكيف ينظر إلينا الناس. هذا العرض كان سيتيح لي فرصة أن أتعرف على قطاع من الرأي العام جديد تماما عليّ».

هذا ما قاله لضحى لكنه كان يخفي سببًا آخر لم يجد من المناسب أن يعلنه. كان قد بدأ يشعر باهتمام خاص بضحى وكل ما يتعلق بها، ووجد في نفسه شغفًا بحضور العرض والتعرف على عملها، لكنه لم يقل ذلك. قال: «لذلك فإلغاء العرض المصري أحبطني كثيرًا ولم تعد بي رغبة للتعرف على خطوط الموضة التي صممها الآخرون». قالت: «لكن صوتك في التليفون كان به شيء من القلق». قال: «خشيت أن تكون هناك مشكلة». قالت: «وهل اطمأننت الآن؟». قال: «من هذه الناحية نعم. لكن أرجو فقط ألا تكوني قد ألغيتِ العرض خشية مواجهة الجمهور». قالت: «إطلاقًا. صحيح أن هذا العرض كان أول عرض لي في صالون ميلانو لكني لم أكن أخشى ذلك». قطعت الزبد فاستجابت لها. وضعت قطعة منها على الخبز ورشت عليها بعض الملح.

سألها: «إذن، ما الذي حدث؟». قالت وهي تقضم قطعة الخبز: «لقد خرجت من الشرنقة. هذا كل ما حدث؛ لذلك تغيرت نظرتي للحياة. اتسع أفقي فلم تعد التصميمات التي صنعتها داخل الشرنقة ترضيني، أو تعبر عن رؤيتي للحياة». قال: «أرى أنك لا تزالين في عالم الفراشات». قالت: «بل لقد دخلته الآن لأول مرة. إنه عالم ثري لا يختلف كثيرًا عن عالم النمل أو النحل. لكني كنت آراه فقط من الخارج. كانت تبهرني ألوانه إلى أن اكتشفت أنه أعمق من ذلك بكثير. لقد اكتشفت على سبيل المثال أن هناك فراشات مصرية صميمة يعود تاريخها إلى آلاف السنين.. هل كنت تعلم أن إحدى الفراشات المصرية يمكن أن تنتظر المطر في الصحراء عدة سنوات داخل

شرنقتها إلى أن يأتي فتخرج من الشرنقة وتتحول إلى فراشة رغم مرور السنين؟.. لقد اكتشفت أيضا أن الفراشة ليست مجرد حشرة صغيرة لا قيمة لها إلا ألوان أجنحتها، بل هي كائن ذو تاريخ استطاع أن يقاوم الفناء آلاف السنين في الوقت الذي انقرضت فيه كائنات أخرى، وذلك لأنه قادر على أن يتحول من دودة رخوة لا حول لها ولا قوة إلى فراشة حرة تطير في الهواء بجناحين جميلين وسط الخضرة والأزهار.

ظل يستمع إليها وهي تتحدث بينما كانت تنساب أنغام تشايكوفسكي الجميلة في الخلفية، ثم جاء النادل بالطعام، فساد الصمت بينهما لحظات وكأن كلامهما لا ينبغي أن يقال أمام أحد، حتى من لا يتحدث لغتهما.

تمايلت في صمت مع الموسيقى فقال أشرف: «كم هي مليئة بالبهجة تلك الموسيقى». قالت : «لم أسمعها منذ سنين . لقد كتبها تشايكوفسكي أثناء رحلة إلى إيطاليا مستلهمًا الألحان الشعبية التي كان يسمعها في شوارع روما والتي قال إنها بعثت فيه الحياة بعد صقيع روسيا». قال: «لقد استطاع أن ينفذ بالفعل إلى جو إيطاليا المبهج وإلى دفء مشاعر أهلها.. كما نفذت أنت إلى كنه الفراشات». قالت مبتسمة: «لم أكن أتصور أن يدور موضوع الحديث مع أحد رجال السياسة حول عالم الفراشات وكأنه مهتم به». قال: «أيبدو لك ذلك غريبًا؟ وماذا تقولين لو أخبرتك إن موضوع كلمتي التي سألقيها في مؤتمر پالرمو هو الفراشة». قالت: «هذا رجل السياسة يهزأ». قال: «لا والله! ولكي أكون أكثر تحديدًا دعيني أقول لك إنني أعتمد في كلمتي على نظرية الـ Butterfly Effect أو تأثير الفراشة».

بدا عليها الاهتمام وهي تواصل أكلها، فقال: «هي نظرية لعالم الرياضيات والأرصاد الجوية الشهير إدوارد نورتون لورنز، تقول بأن لكل فراشة - مهما

صغر حجمها - تأثيرًا في الأرصاد في العالم، فإذا رفرفت فراشة بجناحيها في جانب من الكرة الأرضية أثرت في حركة الرياح بشكل ما في الجانب الآخر. أي أن الظواهر الطبيعية في حقيقتها نتاج لخطوات صغيرة متراكمة قد تبدو غير مهمة أو غير ذات بال لكنها تحدث تأثيرات بعيدة المدى».

قالت وقد بدت عليها الدهشة: «هذه أول مرة أسمع بهذه النظرية». قال: «لقد عرض لورنز نظريته هذه لأول مرة في محاضرة شهيرة ألقاها عام 1973 بعنوان: «هل يمكن لرفة جناح فراشة في البرازيل أن تحدث إعصارًا في تكساس؟».

قالت: «ليتني عرفت ذلك منذ زمن بعيد». قال: «إن نظرية «تأثير الفراشة» تثبت أن كل كائن حي مهما بدا صغيرًا بإمكانه أن يؤثر في الكون». قالت: «إنها نظرية عبقرية. كيف اعتمدت عليها في كلمتك؟». قال: «استخدمتها لأدلل بالبرهان العلمي على أن الفرد الأعزل يستطيع أن يحرك الأعاصير ويؤثر في الأجواء الكونية. وهذه هي قوة المجتمع المدني».

سألته: «متى تسافر إلى پالرمو؟». قال: «غدًا». قالت: «سآتي معك». صمت وأخذ يعبث بشعيرات ذقنه. أدركت أنه ربما واقع في المنطقة ما بين خجل الترحيب باصطحابها معه وعدم كياسة الرفض.

سألها وهو يتمنى أن يكون مخطئًا: «أهذه نزوة إيطالية؟». قالت على الفور: «إطلاقًا». ساد الصمت بينهما ثانية، بينما انسابت موسيقى تشايكوفسكي. قالت: «لقد زرت معظم مقاطعات إيطاليا لكني لم أذهب أبدًا إلى صقلية، والآن ليس لدي ما أفعله في ميلانو بعد أن اعتذرت عن عدم المشاركة في الصالون». لم يرد.

انتهت من تناول الطعام، فوضعت شوكتها وسكينها إلى جوار بعضهما البعض في منتصف طبقها الفارغ، وأردفت تقول: «ثم إنني في الحقيقة مهتمة بمتابعة مؤتمركم هذا. إني لا أزال أذكر مؤتمر منظمات المجتمع المدني الذي عقد في دربان بجنوب إفريقيا قبل سنوات.. كان وقتها حديث العالم كله».

ابتسم ابتسامته الصادقة التي بدأت تأنس لها ، وقال مداعبًا : «ألم نقل إننا لا نحب السياسة؟». ردت على الفور: «أنا فعلًا لا أحب السياسة، لكني أتابع أخبارها. لا تظنني بلهاء تمامًا. ثم إن موضوع دربان هذا كان من الصعب على أي إنسان أن يتفاداه. لقد كانت أخباره في كل القنوات، ووقتها سعدت أن هناك منظمات تمثل المواطنين العاديين تستطيع أن تقف في وجه الحكومات الرسمية في العالم وأن تعلي صوتها بمطالبها».

ضحك هذه المرة وهو يقول: «إنك ناشطة سياسية من الدرجة الأولى أو على الأقل مشروع ناشطة سياسية». قالت: «أتمنى ألا أصبح هذا، فأنا أمقت السياسة ورجالها لدرجة لا تتصورها».

نظر إليها وفي عينيه علامات استفهام حائرة. نظرت هي إلى ما تبقى من قطعة الزبد في الطبق الصغير فوجدتها قد ذابت تماما أثناء حديثهما.

(17)

الأب

خرج أيمن من بيت حسن وقد عقد العزم على أن يذهب في الصباح إلى طنطا بحثا عن السيدة التي تحمل نفس الاسم الذي أملاه والده على أخيه الأكبر عبد الصمد قبل أكثر من ست سنوات، والذي ظل أيمن يردده بين الحين والآخر طوال تلك السنوات حتى لا ينساه. كانت زيارته لطنطا هي الحد الفاصل في هذه القصة التي كان كلما رواها لأصدقائه في المعهد قالوا له باستخفاف:«ما هذا الفيلم الذي ترويه لنا؟ إن لديك خيالًا خصبًا جدًّا»، ومنذ أيام قال له زميله مدحت: «ألن تخبرنا بنهاية هذا الفيلم الذي دام طويلًا؟!»

كان أيمن سيعرف بهذه الزيارة إن كانت أمه لا تزال بالفعل على قيد الحياة، أم أن تلك السيدة التي تعيش في طنطا في عصمة رجل آخر غير والده هي سيدة تحمل اسمًا مشابهًا لاسم أمه.

كان يجب أن يذهب إلى طنطا في صباح اليوم التالي مباشرة فلم يكن باستطاعته الانتظار في حالة الترقب هذه أكثر من ذلك. كانت كل دقيقة تمر عليه في تلك الحيرة تضغط على أعصابه التي لم تعد تحتمل أكثر من ذلك. كان يريد أن يعرف هو قبل أصدقائه، نهاية الفيلم الأبيض والأسود كما أسماه

زملاؤه في المعهد: هل له أمٌّ لا تزال على قيد الحياة؟ أو أن أمه توفيت منذ سنين كما قال والده؟

كانت علاقته بوالده قد تجمدت بعض الشيء. كان كلما عانى الحيرة التي وجد نفسه فيها ألقى باللوم على والده الذي أخفى عنه الحقيقة طوال تلك السنين، والذي ظل رافضًا الإفصاح عن أية تفاصيل خاصة بأمه أو بحياته معها. كانت تمر في بعض الأحيان أيام متتالية لا يتبادل أيمن فيها مع والده أكثر من التحية في الصباح أو عند عودته إلى البيت في المساء. وكان إذا عاد للبيت دخل غرفته ولم يخرج إلى الصالة الخارجية حتى لا يضطر لمجالسة والده.

لم يكن أيمن مرتاحًا لهذا الوضع الذي كان يزداد سوءًا مع الأيام، لكنه لم يكن يملك حياله شيئًا. كان يحب والده لكن عذابه النفسي كان يخلق بينهما جدارًا لم يكن يستطيع تخطيه.

اليوم قرر أن يتحدى صمت الأب. سيخبره بأنه ذاهب للبحث عن أمه، إنه ذاهب لمعرفة الحقيقة التي أخفاها عنه.

في طريقه إلي البيت توقف عند الكشك الواقع على ناصية الشارع واتصل بسلوى على تليفونها المحمول. قال لها: «لا تقلقي يا حبيبتي إن لم آت إلى المعهد غَدا فلدي مشوار مهم. سأحدثك عنه حين أراكِ». قالت له أن يحترس على نفسه وأرسلت له قبلة في التليفون.

حين دخل أيمن البيت وجد والده جالسًا على الأريكة. في الصالة يشاهد التليفزيون. كان وحده بالمنزل. بادره الأب بالسؤال: «مالك؟» فرد أيمن:«لا شيء، لكني أريد أن أتحدث معك». جلس أيمن إلى جوار والده على الأريكة «الإسطنبولي» التي كان جالسًا عليها يوم سمع لأول مرة اسم أمه الذي حفظه بعد ذلك عن ظهر قلب.

وها هي السنون قد مرت، وعلى الأريكة ذاتها جاء يخبر والده أنه وجد أمه. لم يقل كيف عرف مكانها، لكنه أخبره بكل ما توصل إليه من تفاصيل، وقال له إنه ذاهب إليها في اليوم التالي.

انتفض الأب غضبًا، وضرب بيده على إحدى الوسائد التي كانت تفصل بينه وبين ابنه على الأريكة وصاح: «أنا أمنعك أن تفعل ذلك. كيف تتمرد عليَّ بعد هذا العمر؟ أليس لديك أي عرفان بالجميل؟» رد عليه أيمن «أنا أعترف لك بكل ما فعلته من أجلي، لكن من حقي أن أعرف أمي وأنت لم تقل لي شيئا عنها. لماذا لم تقل إن أمنا على قيد الحياة؟» قال الأب:«وكيف لي أن أعرف إن كانت على قيد الحياة أم لا؟ فرد الابن: «إذن اتركني أذهب للبحث عنها فهي أمي ومن حقي أن أذهب إليها».

لم يدر الأب ماذا يفعل لكي يحمي ابنه من تلك التجربة التي لم يكن يريد له أن يخوضها. إنه لا يزال في العشرين من عمره وربما لا يقوى على مواجهة ما قد يلقاه في رحلة البحث هذه. ماذا لو اتضح أن تلك المرأة ليست أمه؟ هل سيقوى على مواجهة الموقف أو سيصاب بخيبة أمل قد تحطمه؟ ماذا لو كانت هي أمه لكنها لفظته حرصًا على حياتها الجديدة؟ هل سيحتمل الصدمة؟ كم كان الأب يتمنى أن يذهب مع ابنه ولا يتركه بمفرده في هذه الرحلة. رحلة البحث عن اليقين التي هي أقسى الرحلات جميعا في حياة الانسان. إنه لا يزال صغيرًا، كيف له أن يتركه وحيدًا في هذه الرحلة التي لا يعرف كيف سيعود منها. يالقسوة الحياة التي تمنعه من مصاحبة ابنه في هذه الرحلة المصيرية التي كان عليه أن يقطعها وحده.

قال أيمن لوالده: «كان بإمكاني ألا أخبرك بكل ذلك ولا أعرفك أنني ذاهب غدا للبحث عن أمي، لكنني لم أشأ أن أخفي عنك شيئًا كما أخفيت

عنا أنت كل شيء. قال له الأب: «أنت لا تعرف أي شيء»، ثم سكت قليلًا وعاد يقول في هدوء: «سيجيء اليوم الذي تعرف فيه كل شيء، أما الآن فانتظر قليلًا». فرد أيمن: «ماذا أنتظر؟ أنتظر أن ينفطر قلبي أو أصاب بانهيار عصبي؟ إنني لم أعد أطيق الانتظار. إني لا أعرف كيف سأمضي ليلتي إلى أن يطلع النهار وأعرف على وجه اليقين الحقيقة الذي حجبتها عني طوال تلك السنين».

وسادت لحظة صمت بين أيمن ووالده قطعها صوت القطة تعوي من جديد في بئر السلم. عاد الأب يقول وقد رفع المسند الفاصل بينه وبين ابنه ووضع يده على كتفه: «اسمع يا ابني أنا لا أجادلك في أن من حقك أن تبحث عن أمك وتعرف إن كانت لا تزال تعيش. كل ما أقوله هو أن تنتظر قليلًا، فأنت الآن في السنة النهائية للدراسة وأخشى عليك من أي صدمة تؤثر فيك».

رد أيمن بسرعة: «الانتظار سيقتلني يا أبي. يجب أن أبحث عن أمي. يجب أن أبحث عن نفسي. أنا لا أعرف من أكون.

واستسلم الأب لإرادة أيمن. كانت رغبة الابن الشاب في أن يبحث عن نفسه، في أن يحقق ذاته أقوى من خشية الأب عليه.

أخرج الوالد بعض النقود من الجيب العلوي لجلبابه وأعطاها لابنه قائلا: «خذ مصاريف السفر». دق جرس الباب ودخل عبد الصمد فسلم عليهما ودلف إلى غرفته، شكر أيمن والده ثم قبله وقال له إنه متعب ويريد أن ينام قليلًا قبل رحلة الغد.

حتى منتصف الليل لم يكن أيمن قد غفى بعد. ولا كان شقيقه عبد الصمد الراقد في السرير المجاور له. كان ضوء الغرفة قد انطفأ منذ دخل كل منهما سريره قبل أكثر من ساعتين، لكنهما لم يخلدا إلى النوم.

كان أيمن هو الذي أحس بشقيقه وقد كثرت تقلباته في الفراش، فقال له: «أمازلت مستيقظًا؟» فرد عليه: «نعم وأنت؟» فأضاء أيمن النور المجاور لسريره، وقال لشقيقه: «أشعر أنه لن يغمض لي جفن هذه الليلة». فرد عليه عبد الصمد:«ولا أنا»، فقال أيمن وهو يزيح حملًا ثقيلًا عن صدره: «غدًا يوم حاسم في حياتى»، فرد عليه عبد الصمد على الفور: «وفي حياتي أيضًا». لم يستطع أيمن أن يكتم السر أكثر من ذلك فقال لشقيقه الأكبر في اقتضاب إنه سيذهب غدًا إلى طنطا للبحث عن أمها، موضحًا أنه لا يريد أن يثقل عليه بالتفاصيل حتى لا يحمله مزيدًا من الهموم فهو يعرف أنه مقبل على حياة جديدة. فقال له شقيقه: «إن حياتي الجديدة تبدأ غدًا»، وردًّا على أسئلة شقيقه الأصغر قال: «غدًا سأقابل الحاج عبد المعطي الذي أعد لي عقد العمل في الكويت. سأسلمه الخمسة آلاف جنيه وأتسلم منه العقد وتذكرة السفر»، فسأله أيمن: «أين؟ ومتى ستقابله؟» فرد عبد الصمد: «في العاشرة والنصف صباحًا في مكتبه بوسط البلد، لماذا تسأل؟» قال: «كنت أود الذهاب معك حتى لا تذهب إليه وحدك، لكنني في العاشرة والنصف ربما أكون قد وصلت طنطا لأنني سأغادر القاهرة مبكرًا». قال له عبد الصمد: «لا تخف على أخيك، أنا أعرف تمامًا ما أفعل»، فرد عليه: «لكنك ستنزل إلى الشارع بكل هذا المبلغ»، قال: «لا تقلق، لقد ذهبت إلى البنك بالأمس وحولت المبلغ كله إلى أوراق فئة الـ 200 جنيه ووضعتها في مظروف إذا شاهدته تتصور أنه خطاب عادي». فعاد شقيقه يسأله: «وهذا الحاج عبد المعطي هل تعرفه؟» فرد عليه وهو يتنهد كأنه سمع كل هذه الأسئلة من قبل، أو أنها كلها دارت في ذهنه: «لا شأن لي بمعرفته. أنا أعرف مكتبه. ثم هو مجرد وسيط بيني وبين الشيخة. إذا لم يسلمني العقد والتذكرة فهي كفيلة بالتصرف معه». قال له أيمن: «ألا تستطيع تأجيل هذا الموعد يومًا واحدًا حتى أعود من طنطا وآتي

معك أنا وبعض الأصدقاء؟» فصاح فيه شقيقه الأكبر: «هل جننت أتريد أن أذهب إليه بزفة بلدي؟ ماذا دهاك؟ أتريد أن تفسد علي الموضوع؟».

حاول أيمن مع شقيقه ثانية دون جدوى، وفي النهاية قال له: «لقد انتظرت هذا اليوم طويلًا كي أتحقق من موضوع أمنا، لكني على استعداد أن أؤجله حتى بعد غد وآتي معك غدًا وحدي بدون أصدقاء»، فرفض عبد الصمد ذلك بشدة قائلًا: «أنسيت أنني الأخ الأكبر. أنا لا أحتاج لحماية، ثم إن عليّ أن أتظاهر أمام مندوب الشيخة بأن هذا المبلغ لا يعني شيئا بالنسبة لي حتى لا تتصور الشيخة أنني أطمع في مالها. اتركني أدير أموري بالعقل والتدبير وليس بالعاطفة، واذهب أنت إلى طنطا وليوفقك الله».

وأراد أيمن أن يحكي لشقيقه ثانية عن موضوع أمهما. كان يريد أن يتحدث عما يثقل على صدره. لكنه شعر بأن عبد الصمد قد ارتاح قليلًا بعد أن تحدث لشقيقه عما ينتظره في الغد، فاكتفى أيمن بالقول: «فليوفقنا الله جميعًا».

(18)

بالرمو

كان افتتاح مؤتمر منظمات المجتمع المدني في بالرمو مهيبًا، حضرته أكثر من سبعمائة منظمة من أهم منظمات المجتمع المدني في العالم، وما لا يقل عن ألف ناشط سياسي يمثلون قارات العالم الخمس، وبعد انتهاء الجلسة الافتتاحية خرج المشاركون في المؤتمر إلى الساحة الرئيسة في المدينة والمعروفة باسم «بياتزا بولتياما» وكأنهم في مسيرة جماعية تابعها سكان المدينة في الشوارع ولوحوا للمشاركين فيها من شرفات المنازل.

في اليوم التالي ألقى الدكتور أشرف الزيني كلمته في المؤتمر وسط ترحيب كبير من الحضور. تحدث عن احتكار الأحزاب الحاكمة في دول العالم الثالث للحياة السياسية، وشرح كيف يبذل المجتمع المدني في مصر الجهود من أجل التغيير والمطالبة بإصلاح الحياة السياسية عن طريق ترسيخ مبدأ تداول السلطة الذي تعتمد عليه الممارسة الديمقراطية، وعن طريق تعديل الدستور الذي وضعه الحزب الحاكم لضمان سيطرته دون غيره على الحياة السياسية في البلاد، أحست ضحى وهي جالسة في القاعة أن الدكتور أشرف ينظر إليها وهو يقول إن المجتمع المدني لا يزال وليدًا في مصر لكن تأثيره يتزايد بشكل مضطرد تمامًا مثل الفراشات التي قد تبدو للبعض كائنات ضعيفة يمكن دهسها، لكن رفرفة جناحيها لها تأثيرها المؤكد في حركة الرياح في العالم،

وقد يتسبب في العواصف والأعاصير وفق نظرية لورنز المعروفة، ثم أنهى خطابه قائلًا إن حركة التغيير ستنتصر على ضفاف النيل لتعود مصر عظيمة مجيدة كما كانت في السابق، ويعود النيل الذي صنع أعظم الحضارات إلى مجراه الطبيعي.

ابتسمت ضحى وهي تستمع للكلمات التي كان الدكتور أشرف قد اختصها بها قبل حضورهما إلى پالرمو. وبعد انتهاء كلمته تدافع إليه عدد كبير من الحضور يهنئونه. وفي اليوم التالي نشرت بعض الصحف صورًا للدكتور أشرف، وحملت إحداها عنوانًا يقول: «هل تعيد رفرفة الفراشة النيل إلى مجراه؟»

وفي مساء اليوم ذاته، دعا رئيس المؤتمر عددًا من أصدقائه المشاركين في المؤتمر على العشاء كان من بينهم العضو المصري الدكتور أشرف الزيني وضحى الكناني التي تصور الجميع أنها إحدى المشاركات معه في نشاطه السياسي، وأنها أتت معه من مصر لحضور المؤتمر. كان العشاء في مطعم شعبي يقدم ما يشتهر به الجنوب الإيطالي: أكلة البيتزا وأغاني مدينة نابولي.

كانت ضحى الكناني قد حضرت إلى إيطاليا للمشاركة في عرض الأزياء، فإذا بها تشارك بدلًا من ذلك في مؤتمر سياسي. كانت تعتزم أن تمضي وقتها في ميلانو في الشمال فوجدت نفسها تتوجه إلى پالرمو في الجنوب. ولو كانت مبروكة العرافة التي كانت تحضر لبيتهم القديم لتقرأ لوالدتها الفنجان قد قالت لها هذا قبل سفرها لقالت إنها لابد قد أدركها الخرف لكبر سنها، ومع ذلك فهي لم تجد نفسها مدفوعة في ذلك رغمًا عنها، بل فعلت كل ما فعلته بإرادتها الحرة ودون تأثير أو ضغوط.

كانت كل الحواجز قد سقطت بين ضحى والدكتور أشرف، فقد وجدت عنده كل ما كانت تبحث عنه. وجدت السبيل لخلاص البلاد من الاستبداد السياسي، وعرفت لماذا كانت تكره السياسة. وبقدر ما كانت تكره رجال السياسة الذين عرفتهم من خلال زوجها وتزدريهم، بقدر ما أصبحت تقدر الدكتور أشرف الزيني وتحترمه. فقد وجدت فيه مثالًا للرجل المحب لوطنه والذي يعمل بإخلاص لإصلاح أوضاعه. كان مؤمنًا بقضيته ولم تكن السياسة عنده وسيلة للتكسب، فلم يكن يتكسب من مواقفه السياسية شيئًا، بل على العكس كان يخسر الكثير نتيجة للملاحقة الأمنية التي كانت تسد عليه فرص الترقي المهني، ولولا أن اللجنة المشرفة على بناء مبنى المدينة الجامعية لجنة مستقلة شكلتها شركة المقاولات التي عهد إليها بالمشروع، لما تم اعتماد تصميمه الذي حصل على إجماع أصوات أعضاء اللجنة.

ومع ذلك كانت ضحى تدرك أن ثمة حاجزًا لا يزال يفصل بينها وبين الدكتور أشرف. كان حاجزًا واهيًا لكن الدكتور أشرف لم يكن يعرف ذلك. ماذا تقول له حتى يسقط ذلك التحفظ الذي كانت تشعر به في تصرفاته معها؟ كان صادقًا وتلقائيًا في تعامله معها، لكنها كانت تشعر أن هناك حدًّا فاصلًا بين معاملته لها كصديقة وما كانت قد بدأت تشعر به تجاهه. هل تصارحه بأن زواجها من مدحت الصفتي زواج صوري؟ هل تقول له إنها في الحقيقة عانس لم تتزوج أو أنها أرملة أو مطلقة؟ هل تحكي له عن المشكلة الزوجية التي تحول بين إقامة علاقة سوية بينها وبين زوجها؟ هل تقول له إن عليه أن يتبنى قضيتها وقضية الكثيرات من الزوجات ضحايا إصابة أزواجهن، بما يعانيه مدحت الصفتي؟ ألا يتطلب الإصلاح الاجتماعي والدفاع عن حقوق المرأة التي كان الدكتور أشرف يؤمن بها، أن يكون الزوج معافى، بمثل ما يطالب الرجل أن تكون الزوجة عذراء؟ إن المرأة تتزوج ممن يبدو رجلًا

عاديًا لا ينقصه شيء ثم إذ بها تكتشف بعد الزواج أن الحقيقة غير ذلك، لو أنه كان مصابًا بعجز جنسي كامل لربما وقفت معها أسرتها وأيدها الشرع وأنصفها القانون، أما أن يعاني الزوج القذف المبكر فإن المجتمع الذكوري الذي نعيش فيه سينظر للمرأة التي تتذمر من ذلك الوضع - ناهيك عمن تطلب الطلاق - على أنها شهوانية غير عفيفة، وأن كل ما يؤرقها هو أنها تريد الحصول على اللذة الجنسية بأكثر مما يوفره لها زوجها. لقد كان مدحت على حق حين اتهمها بالبرود الجنسي، لكنها عرفت بعد ذلك، أنه هو الذي أصابها بالبرود، فقد كان ذلك البرود تجاه زوجها وحده وأنها مع نفسها كانت شعلة متقدة لا يطفئها أحد.

فكرت أكثر من مرة في أن ما بدأت تشعر به تجاه الدكتور أشرف وثقتها به تدفعانها لأن تسر له بما أخفته عن الناس جميعًا. لكنها كانت تتراجع عن ذلك لسببين أولهما أنها لو فعلت ذلك لكانت تحاول استجداء حبه عن طريق استعطافه. أما السبب الثاني فكان أنها حفظت سر زوجها طوال سنوات زواجهما ولم تكن ستحترم نفسها لو أنها تحدثت لرجل آخر عن أدق خصوصيات زوجها.

لذا كانت في حيرة من أمرها. لم تكن تعرف ماذا عليها أن تفعل. أحست لأول مرة كم تفتقد وجود طلعت إلى جانبها. شعرت أنها بحاجة ماسة لأن تحدثه عن أزمتها النفسية، عن أزمتها العاطفية، وعن أزمتها الزوجية. لكنها كانت تخشى من أنه ربما لا يقول لها إلا ما كانت ستقوله لها والدتها لو أنها لا تزال على قيد الحياة، وهو أن الطلاق أبغض الحلال، وأن أبناء العائلات لا يُطلقن، وأن ما تشكو منه يمكن علاجه أو على الأقل تخفيف أثره بطريقة أو بأخرى وليس عن طريق جلب الفضيحة لنفسها ولأسرتها بالطلاق. أما

والدتها فكانت ستضيف على ذلك أن عليها أن تتذكر أنها زوجة أحد أهم رجالات مصر وأن آلاف الزوجات يتمنين أن يكن مكانها.

لا. لن تتحدث مع طلعت في هذا الموضوع ولن تكشف سرها للدكتور أشرف، ستظل في صراعها هذا مع نفسها إلى أن تنفجر شرايين مخها فتشل أو تموت.

هكذا كانت تفكر ضحى وهي وحيدة في فراشها بالفندق حين رن جرس تليفونها. لم يظهر الرقم. أدركت أنه زوجها. لم تجد في نفسها الرغبة في محادثته ظل الجرس يرن إلى أن انقطع رنينه. رن من جديد. قالت لنفسها: قد أستطيع تجاهله الآن ولكن ماذا عساي أفعل غدًا أو بعد غد، أو حين أعود إلى القاهرة؟ سأضطر في النهاية إلى الرد عليه. ذلك قدري الذي لا أستطيع أن أهرب منه. ضغطت على زر الرد.

قال لها: «أين أنت؟». ردت بهدوء: «في پالرمو». قال: «هل عرض الأزياء كان في پالرمو؟». قالت بنفس الهدوء: «لقد قلت لك إنه في ميلانو». قال: «لقد نسيت.. كيف كان العرض ؟». قالت: «لم أحضره». قال بسرعة: «إذن لماذا لم تعودي إلى روما؟» قالت: «ليس لدي ما يدعوني للعودة». قال: «هل لديك أخبار عن رئيس الوزراء؟». قالت: «فليذهب رئيس الوزراء والوزارة كلها إلى الجحيم». ولأول مرة منذ عرفت مدحت أغلقت التليفون في وجهه وانفجرت في البكاء. لقد ذكرها مدحت بالواقع الذي تعيشه وبدا كل ما حدث لها في إيطاليا وكأنه حلم ستعود بعده إلى الحقيقة المرة التي تنتظرها في مصر.

يبدو أن الإنسان حين يسافر يفقد صلته بقواعده ويتصرف وفق قواعد أخرى. لم تصدق أنها جاءت إلى پالرمو مع الدكتور أشرف الزيني، وأنها

حضرت معه المؤتمر الدولي لمنظمات المجتمع المدني، ففي النهاية ستعود إلى مصر وإلى حياتها هناك، ولن يفضي هذا الحلم إلى شيء. بكت بحرارة لا تذكر أنها بكت هكذا منذ زمن بعيد.

رن جرس التليفون ثانية. لم تعد تطيق سماع صوت مدحت. التقطت التليفون كي تغلقه حتى تخرس صوته لكنها وجدت أمامها اسم مرفت. ردت بسرعة قبل أن ينقطع رنين التليفون. لاحظت مرفت اضطراب صوتها فسألتها عما بها، فتعالى صوتها بالبكاء رغمًا عنها وهي تقول: «إنني متعبة يا مرفت». سألتها مرفت: «ممَّ؟». قالت: «من حياتي، من نفسي، من الدنيا كلها. كنت منذ أيام فقط أتصور أنني وجدت كل ما كنت أبحث عنه، لكني اليوم أيقنت أن السعادة ليست من نصيبي في هذه الدنيا».

وضح شعور الفزع في صوت مرفت وهي تسألها: «لماذا يا ضحى؟ ماذا حدث في الصالون؟ ألم تعجبهم أزياؤك؟». قالت: «لم أعرض أزيائي. لقد ألغيت العرض». صرخت مرفت: «ياللمصيبة! لماذا؟». ردت: «المصيبة لا علاقة لها بالعرض.. إنها حياتي.. حياتي هي المصيبة، ولا أملك حيالها شيئًا».

أنهت ضحى كلماتها بنحيب عميق كأنه ألم حيوان يصارع الموت. لم تدرك أن المكالمة انتهت إلا حين عاد التليفون يرن من جديد. ظهر اسم مرفت ثانية. تمالكت ضحى نفسها قليلًا وفتحت الخط. كان طلعت هو الذي يتحدث من تليفون زوجته: «ماذا بك يا ضحى؟ لقد أقلقتني مرفت عليكِ». لم تعد تستطيع أن تتحمل كل هذا الهم وحدها. قالت: «هل لديك القوة أن تسمع ما سأقوله لك؟ هل لديك الشجاعة أن تواجه محنة شقيقتك؟».

قال لها طلعت: «ما هذا الكلام يا ضحى؟ أنا شقيقك ولا يمكن أن أتخلى عنكِ أو أتركك وحدكِ». شعرت ضحى لأول مرة أن شقيقها قلق عليها.

كانت به رغبة واضحة لمساعدتها، فحكت له كل شيء في مكالمة طويلة. كانت كلما قالت له سأروي لك التفاصيل حين أعود قال لها: «لن أتركك في هذه الحالة إلى أن تعودي». حاولت الحفاظ على خصوصيات مدحت، لذلك اكتفت بالقول بأن هناك عدم توافق في علاقتهما الجنسية منذ بداية زواجهما، لكنها روت له عن شعورها تجاهه، وعما وجدته في الدكتور أشرف الزيني، وظروف إلغاء عرض أزيائها، وحضورها مؤتمر بالرمو. في نهاية المكالمة قالت لشقيقها: «هل عرفت الآن سبب شقاء أختك طوال تلك السنين وسبب عذابها الآن والعجز الذي تواجهه؟».

استمع طلعت إليها حتى النهاية ثم قال: «اسمعي يا ضحى إن لديَّ الكثير مما أريد أن أقوله لك حين ألقاك. هذه هي المرة الأولى التي تلجأين فيها إلي. لقد أسقطِّني من حساباتكِ طويلًا لكني كنت دائمًا شقيقك. لقد توفي والدانا ولم يعد لدينا إلا بعضنا البعض».

ارتاحت ضحى لحديث شقيقها وقالت له: «كم أنا سعيدة بما قلته لي يا طلعت، ورغم إدراكي بأن مشكلتي بلا حل إلا أنه يكفيني أنني وجدت لأول مرة من أستطيع أن أشكو له همي». قاطعها طلعت قائلًا: «لقد منحنا الله حياة واحدة وواجبنا أن نحياها سعداء. ليس هناك أي سبب لأن نقبل الشقاء مادمنا نستطيع تغييره. قد يبدو هذا غريبًا لكنني أقول لك صادقًا وبكل إخلاص: عليك أن تطلبي الطلاق. وأؤكد لك أنني سأقف معكِ بكل قوة».

ردت عليه ضحى بصوت متحشرج: «شكرًا يا أخي أبقاك الله لي». وأغلقت الخط دون أن تسمع رده فقد انتابتها حالة هستيرية هي مزيج بين البكاء والضحك.

(19)

لا وجود لجامع كيخيا

حين استيقظ عبد الصمد لم يجد أيمن في سريره. نهض بسرعة من الفراش وبعد حوالي نصف الساعة كان في الشارع. استقل سيارة أجرة حتى لا يتأخر وحرصا على المبلغ الذي يحمله معه والذي سيفتح له باب المستقبل العريض الذي سيحقق له كل آماله. كان يقصد شارع قصر النيل بوسط البلد. مضى بالسيارة الأجرة إلى ميدان التحرير. كان شارع طلعت حرب مغلقًا بسيارات الأمن المركزي بسبب المظاهرات. عرج السائق إلى ميدان عبد المنعم رياض ثم شارع رمسيس، لكنه حين وصل إلى بداية شارع عبد الخالق ثروت كانت سيارات الأمن المركزي تصطف على جانبي الطريق أمام نقابة المحامين. لم يكن الشارع مغلقا لكن المرور كان ينساب فيه ببطء شديد. قال له السائق إنه لن يمضي خطوة واحدة بعد ذلك فالمظاهرات كانت تحيط بنقابة المحامين ومن بعدها نقابة الصحفيين وقوات الأمن المركزي تحيط بالمتظاهرين والموقف لا ينذر بالخير. طلب منه السائق أن ينزل من السيارة لأنه لن يدخل إلى منطقة وسط البلد ولو دفع له ألف جنيه. كان العنوان الذي أعطاه له الحاج عبد المعطي في نهاية شارع قصر النيل بالقرب من جامع كيخيا. قال للسائق إنه لم يتفق معه على أن ينزله في هذا المكان. فرد عليه بأنه إذا لم يشأ أن يدفع الأجرة فلا عليه لكنه لن يمضي بالسيارة خطوة واحدة بعد ذلك. نزل

عبد الصمد من السيارة دون أن يدفع الأجرة، فهو لن يدفع لسائق لم يوصله إلى العنوان الذي كان يقصده، لكن مع ذلك كان غاضبًا لعلمه بأنه لن يجد سيارة أخرى وسط هذا الزحام توصله إلى حيث يريد.

أخرج المظروف الذي به النقود من جيب سترته ووضعه داخل فانلته الداخلية حتى يشعر به وهو ملاصق لجلد بطنه فيطمئن أنه لا يزال في مكانه لم يختف وسط الزحام، ثم عقد العزم ومضى وسط المظاهرات.

«فينك فينك يا بلد .. ومنين أجيب حق الولد!».

«يا حكومة قولي الحق .. الحزب باعنا ولا لأ!».

«فلسطين ضاعت والعراق.. والباقي ع الدويقة والوراق!».

اخترق الزحام بصعوبة مشبكًا ذراعيه فوق صدره ودافعا بكوعيه جموع الشباب يمينًا ويسارا ليفتح لنفسه طريقًا وسط المتظاهرين الذين لو عرفوا أن في صدره خمسة آلاف جنيه لسطوا عليه في التو واللحظة. مالنا نحن بفلسطين أو بالعراق. فليلتفت كل منا إلى نفسه. لو أن كل شخص ركز على مصلحته الشخصية لما ضاع البلد. على أي حال ما هي إلا أيام طالت أو قصرت ويكون قد غادر هذا البلد إلى غير رجعة تاركًا إياه لهؤلاء الشباب الضائعين يبحثون عنه كما يشاءون.

«فينك فينك يا بلد .. فينك فينك يا بلد..».

أسرع في خطاه وسط الزحام إلى أن ترك حشود المتظاهرين خلفه فأخذت أصواتهم تخف واختفى من أمامه المشهد الكئيب لسيارات الأمن المركزي بلونها الداكن كأنها سجون متنقلة جاءت تبحث عن نزلاء.

من شارع عبد الخالق ثروت دخل شارع طلعت حرب ومنه إلى شارع قصر النيل وحين وصل أخيرًا إلى نهايته وجد نفسه أمام مسجد كيخيا

الأثري. سأل عن شارع البستان الذي ذكره له الحاج عبد المعطي. «يمين» .. «شمال» .. «يمين في شمال».. اتبع كل تلك التوجيهات لكنه لم يتمكن من الوصول للشارع. لماذا لا نقول: «لا نعرف» بدلًا من أن ندوخ الناس هكذا؟ عاد أدراجه إلى الجامع فوجد مناديًا للسيارات، لابد أنه يعرف المنطقة عن ظهر قلب. «شارع البستان ليس هنا، وإنما في باب اللوق». قال عبد الصمد: «أليس هذا جامع كيخيا؟ لقد قالوا لي عند جامع كيخيا» ، فرد المنادي: «أنا أعمل هنا منذ أربعين عامًا وأقول لك يا بني لا يوجد في هذه الناحية شارع بستان على الإطلاق».

يا له من يوم عصيب. هل يمكن أن يكون الحاج عبد المعطي قد أخطأ في العنوان الذي أعطاه له. لكن كيف؟ ألا يريد استلام النقود؟» بعد عدة محاولات أخرى باءت كلها بالفشل قرر أن يتصل بالحاج عبد المعطي: «أنا أمام جامع كيخيا يا حاج وليس هناك شارع حوله بهذا الاسم». قال له الحاج: «إذن ابق حيث أنت وسآتي إليك على الفور».

أمام مدخل الجامع تحلقت مجموعة من الزوار حول مرشد سياحي أشار إلى الجامع قائلًا: «هذا هو جامع الأمير عثمان كتخدا القاذدوغلي والذي أنشئ عام 1734، وقد تحور اسم كتخدا المملوكي ليصبح كيخيا، لكن الحقيقة أنه ليس هناك جامع اسمه جامع كيخيا».

فجأة ظهر أمام عبد الصمد الحاج عبد المعطي كأنه جن تم استحضاره. كان رجلًا ممتلئ الجسم برز كرشه أمامه قليلًا حتى تدلى فوق حزام سرواله فلم تقفل عليه زرائر الجاكيت: «أهلا يا ابني. كنت أود استقبالك في مكتبي لأرحب بك لكنني لم أشأ أن أتعبك بالبحث عن العنوان أكثر من ذلك. تعال معي إلى الجامع نصلي ركعتين ليبارك لك الله فيما أنت مقبل عليه وييسر لك أمرك. هل

أحضرت المبلغ؟» قال له عبد الصمد على الفور: «نعم إنه معي»، «إذن أعطني إياه»، ففتح عبد الصمد أزرار قميصه ومد يده داخل ملابسه الداخلية فأخرج الظرف وأعطاه للرجل وقد اكتسى وجهه بحمرة الخجل وهو يقول: «معذرة. قد كان عليَّ أن أخترق جموع المتظاهرين وخشيت أن ينشله مني أحد في الزحام»، «لا عليك يا بني .. لن أعد النقود هنا في الجامع فعما قليل سنصعد إلى مكتبي لتوقع العقد. هل أنت متوضئ»؟ قال عبد الصمد وقد عاوده الشعور بالخجل: «لا»، فرد عليه الحاج: «إذن فلنتوضأ ونصلي ركعتين بركة».

أخذ الحاج عبد المعطي عبد الصمد من يده ودخلا إلى دورة المياه ففتح له باب إحدى الدورات فدخلها وتوضأ لأول مرة منذ سنوات. لم يكن عبد الصمد معتادًا على الصلاة. لكنه كان محتاجًا للبركة في هذا اليوم بالذات.

انتهى من الوضوء بسرعة وخرج من الدورة فلم يجد الحاج عبد المعطي فأدرك أنه سبقه إلى ساحة الصلاة. لم تكن الساحة ممتلئة فلم تكن صلاة الظهر قد حانت بعد. كان هناك رجلان في جانب من المسجد وشيخ مسن يجلس أمام المحراب. لكن الحاج عبد المعطي لم يكن هناك.

اتجه إلى مدخل المسجد حيث وضع حذاءه. بحث عن حذاء الحاج عبد المعطي الذي وضعه أمامه على يسار الأحذية جميعًا فلم يجده.

خرج عبد الصمد من المسجد كالمجنون يبحث عن الحاج عبد المعطي. سأل المنادي وبعض المارة في الشارع، لكن أحدًا لم يره. كانت جموع المتظاهرين الآتية من ناحية نقابتي المحامين والصحفيين قد اقتربت من الجامع. ومن الناحية الأخرى كان طلبة جامعة الأزهر يتقدمون عبر ميدان العتبة إلى الشارع الذي يقع جامع كيخيا على ناصيته.

عاد مرة أخرى إلى الجامع. دخل دورة المياه نظر داخل الدورات. واحدة فقط كانت مغلقة. دفعها بيده بلا تفكير. اعتذر في خجل للرجل الذي كان بداخلها وخرج بسرعة إلى ساحة الصلاة. كان بعض المصلين قد بدأوا يتوافدون إلى المسجد مع اقتراب موعد صلاة الظهر والشيخ المسن كان لا يزال في مكانه أمام المحراب. نظر في وجوه الحضور واحدًا واحدًا. ليس بينهم الحاج عبد المعطي.

لبس حذاءه في عجل وخرج من المسجد لا يعرف أين يذهب. من بعيد سمع أصداء هتافات المتظاهرين المتقطعة والتي تداخلت مع صوت أبواق السيارات القادمة من كل اتجاه:

«فينـك فينـك يـا بلـد؟!» .. «فينـك فينـك ..؟!» ، «فلسـطين ضاعت والعـراق..»،«ضاعـت..ضاعـت يـا بلـد..».

(20)

البدوي.. جاب اليسرى

وصل أيمن إلى طنطا في منتصف النهار. لم يجد صعوبة في العثور على مسجد السيد البدوي. مشى على قدميه إلى المسجد وتوقف قليلًا مشدوها بمشهد قبته الكبيرة. وجد نفسه يدخل المسجد وساقته قدماه إلى مقام السيد البدوي.

أقبلت سيدة تتضرع إلى المقام أن يرزقها بالولد الذي طال اشتياقها إليه منذ فقدت جنينها الأول قبل سنوات. حكت كل ذلك للسيد البدوي ويداها متشبثتان بقضبان السور النحاسي المحيط بمقامه. من داخل السور ظهرت الكسوة الخضراء في لون الأرض الخصبة للريف المصري ذي النبت اليانع.

تعالى أذان الظهر فعم جميع أرجاء المسجد. اتجه أيمن تلقائيًا إلى ساحة المسجد وأدى صلاة الظهر في هدوء وكأنه جاء من القاهرة خصيصا لأدائها. لفت نفسه السكينة منذ دخل المسجد. كان التوتر الذي لازمه طوال اليومين الماضيين وحال دون راحته قد زال وحل محله شعور مريح بالطمأنينة.

تذكر ما كان يسمعه في طفولته عن كرامات السيد أحمد البدوي القطب الصوفي القادم من فاس ببلاد المغرب .. السطوحي صاحب الطريقة الأحمدية الذي كان يأتي بالأسرى طائرين من سجون الصليبيين .. الله الله يا بدوي جاب اليسرى! .. هل سيأتي له السيد البدوي بأمه كما كان يأتي بالأسرى؟

ذهب تفكيره فجأة إلى شقيقه عبد الصمد. كم كان يتمنى أن يكون معه في المهمة التي ذهب لقضائها في القاهرة. وكم كان يتمنى أن يكون عبد الصمد معه هنا في طنطا فيما هو ذاهب إليه. لكن شاءت الأقدار أن يبحث كل منهما عن ضالته في طريق غير طريق الآخر.

قرأ الفاتحة وخرج من المسجد في هدوء إلى الساحة المواجهة له. وجد أمامه منادي السيارات فسأله إن كان يعرف أين يقع شارع السيد البدوي. فابتسم المنادي العجوز وكشف عن أسنانه الفضية وهو يقول: «أيوجد أحد في طنطا لا يعرف شارع السيد البدوي. هو هذا الشارع الذي أمامك».

انتقلت الابتسامة إلى وجه أيمن وسار في الاتجاه الذي دله عليه المنادي ومشى في الشارع يبحث عن حارة السقا، وبعد أن قطع نصف الشارع تقريبًا قابل مقهى على ناصية حارة سد، تعلوها لافتة مثبتة بمسمار واحد في ركنها الأعلى، بينما تدلى ركنها الثاني الذي سقطت مساميره، وقد كُتب عليها: «حارة السقا». بقي أن يبحث عن رقم 9. لم يكن على البيوت أرقام. سأل في المقهى فقال له النادل: «من تريد؟» لم ينطق باسم زوج أمه ولم يشأ أن يسأل في هذه البيئة الريفية عن منزل باسم امرأة. فكرر سؤاله مرة أخرى: «أنا أسأل عن رقم 9» فقال له النادل: «وأنا أسألك من تريد هناك حتى أدلك إن كان العنوان صحيحًا». رضخ أيمن للنادل في هدوء وهو يقول: «أريد منزل الحاجة آمنة عبد الرحيم السعدي». قال النادل:«زوجة الحاج غريب؟» كره أيمن هذا النادل الفضولي الذي نطق أمامه باسم زوج أمه. أشار له برأسه على المنزل المقابل قائلًا: «هو هذا».

جلس أيمن على مقعد وجده إلى جانبه وكأنه خر من طوله. شعر بالاضطراب يعاوده من جديد وتسارعت دقات قلبه. لاحقه النادل بمجرد

جلوسه: «ماذا تشرب؟» رد عليه في اقتضاب: «ينسون». ذهب النادل فهدأ أيمن قليلًا.

أخذ ينظر إلى المنزل المقابل للمقهى. كان مكونًا من ثلاثة طوابق، ترى في أي طابق تسكن أمه؟ وما أدراه إن كانت في المنزل الآن أم خرجت لقضاء حاجة. تدافعت إلى رأسه الأسئلة، وهو الذي كان يتصور أن وصوله إلى عنوان أمه هو نهاية تلك الحيرة وذلك الضياع الذي لازمه طويلًا. لكنه بدا الآن وهو جالس في المقهى المقابل للبيت أكثر حيرة وأكثر ضياعًا مما كان وهو هناك في القاهرة.

ترى هل السيدة التي تسكن هذا البيت والتي هي الآن على بعد أمتار قليلة منه، هي بالفعل أمه، أو أن المسألة لا تعدو كونها تشابها في الأسماء؟ وكيف له أن يعرف؟ ثم ماذا سيقول لها حين يراها؟ هل سيسألها إن كانت لها زيجة سابقة أنجبت منها ولدين؟ هل سيسألها إن كان لها أبناء لا تعرفهم؟

جاء النادل فوضع أمامه كوب الينسون وهو يقول: «إن كنت تريد الحاج غريب فهو لا يعود قبل المغرب، وإن كنت تريد الحاجة فهي في البيت». تظاهر بتذوق الينسون حتى لا يرد على النادل الذي أصبح يزيد من توتره إلى أن ناداه أحد زبائن القهوة فتركه وانصرف.

نظر إلى شبابيك البيت. ترى أي دور تسكن؟ كان شباك الدور الثاني تتدلى منه ملابس غسلت لتوها. تابع قطرات الماء وهي تسقط على الأرض الترابية للحارة، قطرة قطرة. شعر أن أمه تسكن خلف هذا الشباك، وقد تكون هي التي غسلت هذا الغسيل مادامت بالمنزل. حاول أن يتبين تفاصيل الملابس المنشورة لكنها بدت فضفاضة كملاءات سرير أو بياضات.

عاد النادل من جديد. في هذه المرة مال على أيمن وقال له بصوت خافت: «إن كنت قد جئت تطلب يد البنت أنت الآخر فانتظر حضور الحاج حتى لا يحدث لك ما حدث لزميلك».

لقد تمادى النادل بأكثر مما ينبغي. طلب أيمن الحساب دون أن يبدي أي اهتمام بتلك النصيحة عديمة الجدوى، وقرر بمجرد أن دفع الحساب أن يصعد إلى الدور الثاني ويطرق الباب ويسأل عن الحاجة آمنة عبد الرحيم أحمد السعدي ويرى كيف ستتوالى الأمور بعد ذلك. لابد أن يبدأ من نقطة ما، فهو لن يبقى في المقهى حائرًا هكذا إلى ما لا نهاية.

دخل البيت بسرعة وبلا تردد وكأنه يعرف طريقه جيدا حتى لا يلفت نظر أحد من الجالسين على المقهى، وما إن اختفى داخل البيت حتى بدأ يصعد السلم في بطء وهو يتدبر أمره. أهو يفعل الشيء السليم؟ ماذا لو لم تكن أمه؟ كيف سيبرر دخوله عليها في البيت هكذا؟ هل سيصدق أحد قصته الخيالية هذه والتي قال له أصدقاؤه في المعهد إنها فيلم عربي قديم؟ ألن يرتاب الناس في أمره في هذا المجتمع الريفي إذا روى هذه القصة؟

وصل إلى الدور الثاني. كان به باب واحد فقط. طرقه بيده بلا تفكير وكأن قوة خفية تدفعه لذلك: طق طق طق .. أهو صوت الباب أم صوت قلبه الذي تعالت ضرباته؟ لم يفتح أحد. انتظر قليلًا، وهم بطرقه ثانيا فانفتح فجأة.. لتظهر له امرأة ترتدي جلبابًا ورديًا وقد ربطت منديلًا أبيض حول رأسها. ما أن نظر في وجهها حتى عرف كل شيء، وذهبت حيرته، وانتهى ضياعه. شعر كأنه ينظر في المرآة. كانت السيدة في نهاية العقد الخامس من عمرها لكنها كانت تشبه الوجه الشاب الذي تعود أن يطالعه كل صباح في المرآة. أراد أن يرمي نفسه في أحضانها لكنه خشي أن يفزعها. نظر إليها فخرجت

من أعماقه صيحة لا إرادية: «أمي!»، صرخت المرأة كالحيوان الملتاع: «من؟!» قال: «أنا أيمن يا أمي». سقطت الأم مغشيًّا عليها، فهُرع إلى نجدتها وجسده كله ينتفض والدمع في عينيه يزغلل رؤيته، ومن الداخل أقبلت فتاة لم تبلغ بعد العشرين، ما إن وجدت أمها في الأرض حتى صرخت: «أمي ماذا بكِ؟» ثم نظرت إلى ذلك الشاب الغريب الذي لم تره من قبل وقالت في فزع: «من أنت؟».

(21)

المظـاهـرة

لم تعد ضحى إلى بيت مدحت الصفتي. توجهت من المطار مباشرة إلى بيت شقيقها طلعت. لم يكن مدحت يعرف موعد عودتها. فوجئ بها تتصل به قائلة إنها في القاهرة لدى شقيقها وأنها تطلب الطلاق وأنها متنازلة عن كل حقوقها.

كان مدحت مراوغًا. قال إنه لن يقف في طريق رغبتها مادام هذا ما تريده، لكنه طلب أن يلتقي شقيقها للاتفاق على الإجراءات. كانت تود أن تقول له إنها تفضل أن يتم الموضوع بينهما دون تدخل من أحد، لكنها وافقت على طلبه حتى لا تترك له أي فرصة للتراجع. وحسب الاتفاق ذهب طلعت للقاء مدحت في مكتبه، بينما ذهبت ضحى بصحبة مرفت إلى بيت الزوجية لتجمع متعلقاتها.

تفقـدت مـرفت «الڤيلا» الفسـيحة القابعة بوسـط شـارع الهـرم بالجيزة وقالـت: «كِـل هذا الأثـاث ملكك يا ضحـى فلا تتركيه، لقـد كان جهازك فاخرًا وحتما سـتحتاجينه». نظرت مرفـت إلى «الكونصول» الذهبي الفخيم الـذي يعود طرازه إلى عصر «البـاروك روكوكو» الفرنسي وتذكرت ما كانت

تقوله حماتها الراحلة من أنها اشـترته لضحى من مزاد القصر الملكي بعد قيام الثـورة . ردت ضحى وهي منشـغلة بلملمـة أغراضها الشـخصية: «حلال عليه كل الموجودات. لا أريد شيئًا يذكرني بهذا البيت».

لم تستغرق زيارة ضحى للفيلا طويلًا. عادت مع مرفت إلى بيتها بعد أقل من ساعة، وهي على شوق لمعرفة ما تم بين شقيقها ومدحت. لكن حين عاد شقيقها أصيبت بخيبة أمل. قال لها إن مدحت أخبره بأنه على استعداد تام لكل إجراءات الطلاق، ورغم أنه لا يعرف سببًا لهذا القرار غير المفهوم، إلا أنه لا يقبل على كرامته أن يتمسك بزوجة ليست متمسكة به. كما أنه على استعداد أيضًا للوفاء بكل التزاماته في هذا الشأن. كان له فقط طلب وحيد وهو ألا يتم الطلاق الآن لأن البلاد تستعد للانتخابات العامة وهو أحد أهم مرشحي الحزب، ومثل هذا الطلاق سيعطي فرصة لصحف المعارضة لاستغلال الموضوع ضده واختلاق ما يشاءون من أكاذيب.

صرخت ضحى في شقيقها: «إنه يراوغ يا طلعت. أنا أعرفه جيدًا». رد طلعت: «لقد أعطاني كلمة شرف بأنه سيتمم إجراءات الطلاق بمجرد انتهاء الانتخابات». قالت: «أنا لا أقبل أن أربط حياتي الشخصية بحساباته الحزبية. فليذهب الحزب إلى الجحيم، هو ومن ينتمون إليه. أنا لم أعد أطيق أن أبقى يومًا واحدًا على ذمته».

نصحها طلعت بأن تهدأ قليلًا ووعدها بأن يحاول من جديد مع مدحت حتى يجنبها اللجوء للمواجهة المباشرة معه، لكن ضحى كانت قد عقدت العزم وانتهى الأمر. شعرت لوهلة أنها شخص آخر. بدأت تلحظ أن تصرفاتها أكثر حسمًا مما كانت في السابق. كانت تعرف بالضبط ما تريد وكانت ماضية إليه مهما حدث.

شكرت طلعت، ومضت إلى غرفتها تتدبر أمرها. لم تكن قد اتصلت بالدكتور أشرف منذ تركته في إيطاليا. لم تكن تريد أن تسبب له حرجًا مفضلة أن يكون لقاؤهما التالي بعد أن تكون قد حصلت على الطلاق من مدحت الصفتي وأصبحت حرة. لكنها مع ذلك قابلته بلا موعد في مظاهرة حاشدة أمام دار القضاء العالي دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

كانت صديقتها الدكتورة مشيرة قد أخبرتها بأنها ستشارك في مظاهرة كبيرة ستخرج من الجامعة متجهة إلى دار القضاء العالي للمطالبة بتعديل الدستور، وقالت الدكتورة مشيرة مداعبة: «طبعًا مدام مدحت بك الصفتي لا علاقة لها بأعمال الشغب هذه»، فقاطعتها ضحى قائلة: «من قال لك ذلك؟ أنا مصرية مثلك وأشعر مثل كل المصريين بالأزمة التي تمر بها البلاد. ثم إنني لست عضوًا بالحزب الحاكم ولا علاقة لي بسياساته التي أمقتها مثلكم جميعًا».

دهشت الدكتورة مشيرة من حديث صديقتها القديمة، ودهشت أكثر حين أعربت لها ضحى عن رغبتها في أن تذهب معها إلى المظاهرة.

«غير غير الدستور.. قبل ما نكشف المستور!!»

«بلادي بلادي.. موش لاقي قوت ولادي!!»

هتافات بدأت تتعالى وهي في طريقها مع صديقتها إلى موقع المظاهرة. كانت مشيرة قد أوقفت سيارتها بعيدًا عن دار القضاء العالي ومشت مع ضحى حوالى مائتي متر إلى مكان المظاهرة الذي ما إن وصلتا إليه حتى تعالت الأصوات من كل جانب.

تدافع المتظاهرون فيما بينها وبين صديقتها، فوجدت ضحى نفسها محمولة بعيدًا عن صديقتها. لم تكن تتصور أنها يمكن أن تجد نفسها يومًا وسط هذا

السيل من البشر دون أن تشعر بالضيق أو الخوف. شعرت على العكس بالقوة وأن هؤلاء المتظاهرين هم أحد مظاهر تلك القوة التي بداخلها. شعرت وكأنها ترتفع فوق جموع الشباب. كأنها محمولة على الأعناق. كأنها فراشة تطير في الهواء بلا حواجز ولا موانع.

«موش ح نخاف، موش ح نطاطي.. خلاص كرهنا الصوت الواطي!»

تكرر الهتاف حولها وكأن المتظاهرين يرددونه أمامها كي تحفظه. أخذت إحدى الفتيات بيدها ورفعتها إلى أعلى وهي تصيح: «موش ح نخاف، موش ح نطاطي.. خلاص كرهنا الصوت الواطي». وجدت ضحى نفسها تصيح مع المتظاهرين من جموع الشعب: «موش ح نخاف، موش ح نطاطي.. خلاص كرهنا الصوت الواطي!». رددته عدة مرات فشعرت بنشوة غريبة لابد أنها ما يشعر به الطفل لحظة ميلاده، لحظة خروجه إلى الدنيا.

نظرت إلى الفتاة التي أخذت بيدها في المظاهرة ورددت معها الهتاف. كان لها وجه مصري صميم ذكرها ببعض الأيقونات القديمة. سألتها: «ما اسمك يا حبيبتي؟». قالت الفتاة: «هالة جرجس عبد الشهيد». قبلتها فابتسمت الفتاة في حياء ثم سألتها: «وحضرتك؟». قالت: «ضحى الكناني».

انقطع حديثهما فجأة مع تصاعد الهتافات:

«بلادي بلادي .. موش لاقي قوت ولادي!»

تصايحت أصوات من حولها: «الدكتور أشرف.. الدكتور أشرف»، فهدأت الهتافات، واتجهت وجوه الجميع صوب الدرج الكبير لدار القضاء العالى، ذلك المبنى العتيد الذي كان في عهد سابق مقرًّا للمحاكم المختلطة قبل أن يؤول إلى الشعب. كان الدكتور أشرف الزيني يقف مع مجموعة

صغيرة من بينهم صديقتها مشيرة. بدت خلفه أعمدة المبنى الباسقة، وبدا هو كأنه كاهن هذا المعبد المهيب. تحدث في مكبر الصوت الذي كان يحمله في يده فارتفع صوته في الجموع المحتشدة أمامه: «إخواني.. أخواتي.. إليكم جميعًا التحية على روح الإقدام التي تحليتم بها.. إن مجيئكم اليوم إلى هذا الموقع له دلالته السياسية والاجتماعية وستكون له دلالته التاريخية أيضًا.. فالبلد كله يتطلع إليكم. العالم كله يتابع خروجكم اليوم في هذه المظاهرة التي نتمنى ألا تغيب دلالتها عن ذلك الحزب الديكتاتوري المستبد، الذي يسيطر على مقاليد البلاد .. تغيرت فيها الدنيا من حولنا وهو لم يتغير. خمسة آلاف شخص يقفون اليوم أمامي هم خيرة أبناء هذا الوطن لأنهم اختاروا أن يعبروا عما تجيش به صدور أبناء هذا الشعب.. شعب مصر العريق الذي يستحق حياة أفضل بكثير من تلك الحياة المأزومة التي فرضها عليه ذلك الحزب الفاسد.. حزب المصالح الشخصية.. حزب التحكم والطغيان.. الحزب الذي يحتمي بدستور وضعه «ترزية القوانين» حتى يحكموا قبضتهم إلى الأبد على مقدرات هذا الوطن.

«يسقط يسقط الاستبداد.. أنا فداكِ والأولاد!»..

«غير غير الدستور.. قبل ما نكشف المستور!»..

انطلقت الهتافات عدة مرات قبل أن يعود الدكتور أشرف لحديثه: «حين نطالب بتعديل الدستور فنحن نطالب بالحياة الحرة الكريمة لأبناء هذا الشعب، فالحرية هي التي تصون قوت الناس والديكتاتورية هي التي تأكل حقوقهم، إن هذا الشعب ليس شعبًا خنوعًا، وهو لا يقبل الضيم، وأنتم طليعة المعبرين عن رفض الشعب للأوضاع القائمة.. إن هذا الشعب حين يغضب فليس هناك من يستطيع أن يواجه غضبه.. لقد قام الشعب المصري

بثورات متتالية قلبت موازين الأمور في المنطقة العربية كلها، بل وفي العالم كله، فهو الذي ثار ضد الاستبداد والاحتلال عام 1919 فوحد كل طوائف الشعب وفئاته من أجل الاستقلال. وهو الذي فجر ثورة 23 يوليو التي حققت التحرر والاستقلال، وأعلنت الجمهورية، وأممت القنال، وهي التي التحم بها الشعب فأسقط الإمبراطوريات وغير الموازين الدولية، مؤكدا التواجد المصري في آسيا وإفريقيا وجعل من مصر قائدًا للعالم الثالث.

إن الشعب الذي سجل في تاريخه أروع الثورات قادر على أن يثور مرة أخرى مادامت الظروف التي أدت لثوراته عادت من جديد. لقد عاد الفساد وعاد الاستبداد وعادت القيود التي تكبل الإرادة الوطنية وكأننا في عهد الاحتلال. هذا الشعب سيثور من جديد ليسقط حكم حزب الفساد والاستبداد والطغيان».

علت الهتافات من كل جانب، وصعد المتظاهرون إلى الدرج الكبير وحملوا الدكتور أشرف الزيني على أعناقهم وهم يهتفون بحياته وبسقوط حزب الفساد والاستبداد والطغيان، وشعرت ضحى أنها جزء من عملية مخاض هائلة تمر بها البلاد سيتولد عنها حتمًا وضع جديد يليق بهذا الشعب الذي تحدث عنه الدكتور أشرف. كانت تود الاقتراب من موقع الدكتور أشرف ورفاقه فوق الدرج الرخامي لكن الجماهير المؤلفة التي احتشدت في المكان حالت دون تحركها ولو لخطوات. كانت الجماهير هي التي توجه خطواتها كما كانت هي التي تشكل مشاعرها الوطنية في تلك اللحظة المشحونة بالانفعالات.

كانت الآن وحدها بعيدًا عن مشيرة التي جاءت معها. بحثت عن هالة التي كانت إلى جوارها فلم تجدها. ساقتها موجات البشر المتدفقة إلى

الجانب الأيمن من حشد المتظاهرين الذي كان يسد شارع 26 يوليو عن آخره، لكن فجأة اقتحمت سيارات الأمن المركزي السوداء المشهد قادمة من الاتجاه المعاكس، فتفرقت الجموع التي كادت تُدهس تحت عجلات تلك السيارات العملاقة. تقيأت السيارات القوات التي كانت بداخلها فخرجت حاملة الهراوات، وأخذت تنهال بها على رءوس وظهور الشباب من الفتيان والفتيات وسط صراخ البعض وفزع الجميع. سقطت أمام عينيها فتاة مضرجة في الدماء، فانطلقت ضحى إليها لتفاجأ بأنها هالة التي علمتها أول هتاف هتفت به. ارتمت عليها تحاول إنقاذها، وصرخت في ضابط الأمن الذي ضربها: «ألا تخجل من نفسك يا رجل؟ أنت تتقاضى راتبك من قوت هذا الشعب المسكين لكي تحميه لا لكي تحمي الحزب الحاكم. كيف تضرب فتاة في سن ابنتك؟!». صاح بها الضابط: «اغربي عن وجهي ودعينا ننهي عملنا وإلا ضربتك كما ضربتها».

أثناء حديثها مع الضابط قامت مجموعة من الشباب بحمل هالة بسرعة إلى خارج المظاهرة، وكأنهم تدربوا على هذه الأعمال وكانوا يتوقعون كل ما حدث.

في تلك اللحظة وصل الدكتور أشرف الزيني إلى حيث يقف الضابط وسمع تهديده لضحى فقال له بحدة: «لن تضرب أحدًا إذا كنت تريد أن تخرج من هنا سالما». «ألا تعرف من الذي تحدثه؟ أنا الحكومة» كان رد الضابط الذي تبعه على الفور هجوم شرس من جانب القوات المصاحبة له، وكأن رده كان هو إشارة التحرك المتفق عليها. انقض أفراد قوات الأمن على الشباب الذين تحلقوا حول الدكتور أشرف بالهراوات الثقيلة ففرقوهم، بينما قامت مجموعة من القوات بشل حركة الدكتور أشرف، وقام الضابط بنفسه

بوضع «الكلبشات» في معصميه، ثم قال له: «الآن تعال معي إلى القسم لتسمعني تهديداتك الجوفاء، فأنا لم أسمعها جيدًا وسط هذه الضوضاء».

ساد الهرج والمرج. وكما تم إلقاء القبض على الدكتور أشرف الزيني ألقت بقية القوات القبض على كل من طالته من الموجودين في المظاهرة.

وعادت ضحى من المظاهرة وكأن قلبها قد اقتلع من مكانه. لم تستوعب ما حدث. كانت التجربة جديدة تمامًا عليها صعدت بها إلى عنان السماء ثم هبطت بها إلى أسفل درك. سيطر عليها الشعور بالإحباط، وبدأت تسأل نفسها: لماذا كلما بدأت تنطلق في الهواء سقطت على وجهها في مستنقع الواقع العفن الذي يحيط بها وبالناس وبالبلد وكأنه لا خلاص منه؟ كانت قلقة على مصير الدكتور أشرف، حزينة على ما أصاب هالة، خائفة على مستقبل البلد، متوجسة مما ينتظرها.

(22)

مشــيرة

وفي اليوم التالي، انقلب البلد رأسًا على عقب. صدرت الصحف وقد تصدرتها صور المظاهرة الحاشدة عند دار القضاء العالي مبرزة خبر القبض لأول مرة على الدكتور أشرف الزيني أستاذ الجامعة والناشط السياسي الذي أصبح يجسد آمال الجماهير في التغيير، ويقود العمل الشعبي من أجل إسقاط الحزب الحاكم. كما أفردت القنوات الفضائية مساحات كبيرة لحوادث العنف التي وقعت، ولاعتداءات قوات الأمن على المتظاهرين، ولتحرش بعض أفراد هذه القوات والذين كانوا يرتدون الملابس المدنية بالفتيات المشاركات في المظاهرة، ونشرت إحدى الصحف صورة متظاهر بملابسه الداخلية بعد أن جردته هذه القوات من الملابس التي كان يرتديها.

في اليوم ذاته اتصل مدحت الصفتي بطلعت الكناني شقيق ضحى ونقل إليه أن عمه عبدالرحمن «بك» أخبره بأن الأمن لديه معلومات مؤكدة بأن شقيقته تواجدت في مظاهرات فلول المعارضة التي وقعت بالأمس عند دار القضاء العالي، وأن تلك مسألة خطيرة لا يستطيع السكوت عليها. ثم قال لطلعت إنه لم يعد يفهم ماذا أصاب شقيقته، وطلب منه بأن ينصحها بالتزام البيت إلى أن تنتهي الانتخابات ويمنحها الطلاق في هدوء، وإلا فسيضطر لأن يفرض عليها السلوك القويم بطريقته.

كان طلعت مستنكرًا ما قاله مدحت الصفتي وهو يبلغ ضحى به. قال لها: «لقد أكدت له أنك لم تشاركي طوال حياتك في أية مظاهرات، وأن التواجد في مظاهرة قد يكون مصادفة ولا يعني بالضرورة المشاركة فيها..». قاطعته: «لا يا طلعت.. لقد شاركت بالفعل في المظاهرة. ومدحت الصفتي لا يملك أن يملي عليَّ ما أفعله». بدت على طلعت علامات الدهشة، وقال لشقيقته: «هل أنت مدركة لما تفعلينه؟». قالت: «تماما». قال: «أتمنى ألا يكون ذلك رد فعل لموقفك من مدحت». قالت: «بل العكس هو الصحيح. إن موقفي من مدحت هو رد فعل لما أصبحت أشعر به ليس تجاه مدحت فهو غير مهم بالنسبة لي، وإنما تجاه حياتي كلها، الحياة التي أفتقدها، فأنا لم تكن لي حياة على الإطلاق. الآن لأول مرة أشعر بالحياة.. أشعر بأن لي كيانًا.. أشعر بالناس من حولي.. أشعر بأن لي هوية وبأنني أنتمي لشعب ولبلد، لهذا أرفض مدحت. فلا تقلق يا طلعت عليَّ، أنا أعي تمامًا ما أفعله.

استمع طلعت إلى حديث ضحى في صمت، ثم قال لشقيقته: «مادمتِ تفعلين كل ذلك بإرادتك فأنا لست قلقا عليك». قالت: «لا أريدك أن تقلق أيضا مما يمكن أن يفعله مدحت، فهو جبان يخشى على نفسه وعلى مستقبله أكثر من أي شيء آخر». قال طلعت: «إن ما أخشاه ليس مدحت، وإنما أخشى الحكومة كلها والتي يمكن أن يسخرها لأغراضه». قالت: «لقد اخترت طريقي بإرادتي الحرة.. أنا أعرف أن الطريق سيكون وعرًا ومليئًا بالعقبات لكن عليَّ أن أمضي فيه إلى نهايته، فالعودة تعني التنازل عن الحياة التي بدأت أتعرف عليها لأول مرة. العودة هي انتحار وأنا لا أريد الانتحار. أريد الحياة التي بدأت تتفتح أمامي».

في المساء ذهبت ضحى إلى مشيرة. كانت مكالمات ضحى التليفونية مع صديقة الدراسة التي أصبحت الآن أستاذة مرموقة أكثر من زياراتها لها. اليوم

أحست أنها تريد أن تزور مشيرة، وأن تجلس معها في بيتها، وأن تتحدث إليها مباشرة وليس عبر التليفون.

استقبلتها مشيرة بترحاب كبير قائلة: «أهلًا وسهلًا! حمدًا لله على سلامتك!». أحست ضحى أنها عادت من سفر بعيد، ثم جلست الصديقتان تحتسيان الشاي الأخضر.

كانت مشيرة طويلة القامة تميل للنحافة؛ مما كان يضفي عليها مسحة من الرشاقة الطبيعية. كانت تضع على عينيها نظارتها الطبية وقد عقدت شعرها الطويل خلف رأسها في ربطة أنيقة. قالت لضحى وهي تصب لها الشاي: «هذا الشاي بنكهة الياسمين. لقد أحضرته معي من اليابان».

فجأة قالت ضحى لمشيرة: «ماذا سنفعل من أجل الدكتور أشرف الزيني؟». اندهشت مشيرة للسؤال وقالت لها: «أنا مازلت عاجزة عن استيعاب هذا التحول يا ضحى والذي يجعلك تهتمين بمصير رجل هو حقيقي عظيم لكنك لا تعرفينه».

لأول مرة أسرَّت ضحى لمشيرة بأنها قابلت الدكتور أشرف في إيطاليا أثناء زيارتها الأخيرة، وأنها وجدته إنسانًا محترمًا يؤمن بما يفعل ولم تزد. قالت مشيرة إنهم يعدون الآن لمظاهرة أكبر من الأولى وأنها ستجرى لأول مرة على باب مجلس الشعب، للمطالبة بالإفراج عن الدكتور أشرف وإعمال حقوق الإنسان التي وقعت مصر إعلانها الدولي منذ عشرات السنين لكنها تغتالها كل يوم. قالت ضحى: «وأنا معكم». ردت مشيرة: «إذن، عليك اتباع بعض التعليمات.. أولا ستلبسين غدًا ملابس الحداد السوداء.. ثم خذي عندك هذا الرقم. سجليه فورًا على تليفونك المحمول إذا وقع لك أي مكروه اتصلي به فورًا. «رقم من هذا؟» سألت ضحى. ردت مشيرة: «إنها غرفة عمليات

خاصة أقامتها المنظمات المدنية المطالبة بالتغيير ويعمل بها مجموعة من الشباب المتطوعين والذين يعرفون ماذا يفعلون وبمن يتصلون في حالة الطوارئ». سجلت ضحى الرقم فأضافت مشيرة: «الشيء الثاني: سجلي أيضا رسالة تقول: «تم إلقاء القبض على..» وخزنيها عندك، وفي حالة أي اعتقال يمكن إضافة اسم من ألقي القبض عليهِ إن كنت تعرفينه، أو يمكنك أن تضعي أوصافه أو عدد من ألقي القبض عليهم». «ولمن أرسلها؟» سألت ضحى بعد أن سجلت الرسالة. قالت مشيرة: «لغرفة العمليات أيضًا، وهناك من سيتولى إبلاغها لبقية الناس كما أن هناك من سينقلونها إلى منظمات حقوق الإنسان وإلى أجهزة الإعلام سواء المحلية أو الأجنبية».

كان حماس ضحى باديًا وهي تفعل ما طلبته منها صديقتها أستاذة الجامعة، لكنها قبل نهاية الزيارة قالت لمشيرة: «لا تسيئي فهمي يا مشيرة. فأنا مؤمنة بما تفعلونه وأقدره كل التقدير، لكني مع ذلك أريد أن أسأل: هل هناك فائدة؟ هل ستؤتي هذه الجهود ثمارها كما نتمنى، أو أن قدرنا أن يظل كل شيء على ما هو عليه؟».

قالت مشيرة في هدوء: «المهم هو أن نكون مؤمنين بما نفعله، أما النتائج فهي عند الله. طبعًا أنا متفائلة.. وهذا يعود للدكتور أشرف الذي ملأنا جميعًا تفاؤلا بإمكانية التغيير، لا تنسي أن الحركات الشعبية هي التي أسقطت النظام في بولندا ودولًا أخرى في أوروبا الشرقية، بل وفي دول العالم الثالث أيضًا حيث السلطة والتنظيمات السياسية ضعيفة، فقد نجح العمل الدءوب بين الجماهير بواسطة النقابات ومنظمات حقوق الإنسان وغيرها من التجمعات المدنية في إسقاط أنظمة جائرة في كل من الأرجنتين والبرازيل وشيلي وقامت في كل من هذه الدول بعد ذلك أنظمة ديمقراطية».

في تلك الليلة نامت ضحى الليل مرتاحة رغم اضطراب الوضع العام بعد اعتقال أشرف الزيني، ورغم تهديدات مدحت الخسيسة، وفي الصباح اتجهت ضحى إلى مجلس الشعب مرتدية السواد. كانت الساعة العاشرة صباحًا لكن الجماهير كانت قد وصلت إلى الموقع وكادت تسد الشارع.

«مجلس الشعب صباح الطين.. الشعب المصري شعب حزين!» «مجلس الشعب فوق فوق.. الشعب المصري بقى مخنوق!»

كانت الحشود المتشحة بالسواد تملأ الشارع في مشهد مهيب تسابقت لتسجيله أجهزة الإعلام ووكالات الأنباء. أحست ضحى أنها بين أهلها وأنها تعرف هؤلاء المتظاهرين فردًا فردًا.. كان رداؤها الأسود هو عنوان العلاقة المباشرة بينها وبين بقية المشاركين في المظاهرة.

«شفتوا حكومة الحريات.. انتهكت عرض البنات!».

«يا دبورة ونسر وكاب.. ليه بتحبس الشباب»

«خايفين من الكلمة الحرة ليه؟.. بعتوا بلدنا بكام جنيه؟»

لأول مرة هتفت ضحى في المظاهرة، ففي لحظة صمت ما بين الهتافات وجدت صوتها ينطلق بهتاف ظل عالقًا بذهنها منذ المظاهرة السابقة: «موش ح نخاف، موش ح نطاطي.. خلاص كرهنا الصوت الواطي!» فإذا بالجموع ترديده وراءها مرة واثنتين وثلاثة.

اقتربت إحدى الشابات من ضحى فقدمت لها نفسها. أنا سلوى العليمي صحفية بجريدة «الصباح» المستقلة، ثم استأذنتها في إجراء حوار معها للجريدة، فتحدثت إليها ضحى بقلب مفتوح منتقدة الحزب الحاكم، قائلة إنه صادر الحياة السياسية في البلاد، وتعقب كل من حاول ممارسة حقه الطبيعي في المشاركة السياسية. وقالت ضحى إن

إلقاء القبض على الدكتور أشرف الزيني كان خطأ كبيرًا سيدفع الحزب ثمنه غاليًا؛ لأن الدكتور أشرف قيادة شعبية، وأنه أصبح يجسد آمال الجماهير، وبذلك يكون اعتقاله غباءً سياسيًا يزيد الأمور اشتعالًا. ثم قالت: «إن لم يتم الإفراج عن الدكتور أشرف الزيني فإن الناس لن تسكت وعلى الحزب أن يتحمل عواقب الغضب الشعبي».

قالت لها سلوى شاكرة: «لقد لخصت الموقف كله في كلامك هذا». ثم سألتها عن اسمها فقالت بلا تردد: «ضحى الكناني». نظرت إليها سلوى متفحصة وقالت: «مصممة الأزياء؟». هزت ضحى رأسها بالإيجاب، فسألتها إن كانت تريد حجب اسمها، فقالت ضحى: «أنا لا أخشى شيئًا.. هذه هي آرائي ولا أخجل منها». ومن ورائها رددت جموع المتظاهرين: «موش ح نخاف، موش ح نطاطي.. خلاص كرهنا الصوت الواطي!».

كان كل يوم يمر على ضحى تشعر أنها ارتفعت فيه هامة جديدة. وفي هذا اليوم تركت المظاهرة وقد ملأتها الثقة بالنفس. مشت من شارع مجلس الشعب بوسط البلد حتى بيت شقيقها في المهندسين دون تعب. لم تشأ ركوب السيارة. السيارات تخنقها. كانت تود الالتحام بالبشر. تفرقت المظاهرة بعد انتهائها في عدة اتجاهات، لكن الشوارع ظلت مكتظة بالناس. أحست أن الجماهير لا تريد أن تتركها حتى توصلها إلى البيت، ولا كانت هي تريد أن تترك الناس.

عادت إلى البيت فدخلت مباشرة إلى غرفتها ونامت نومًا عميقًا كأنها لم تنم منذ سنين. استغرقت في النوم من بعد ظهر ذلك اليوم حتى اليوم التالي.

صحت على صوت مرفت توقظها حاملة معها الجريدة التي أجرت مندوبتها الحديث معها. كان حديثها في الصفحة الأولى وقد حمل عنوان:

«زوجة مدحت الصفتي توجه إنذارًا للحزب الحاكم: إما الإفراج عن أشرف الزيني أو تحمل عواقب الغضب الشعبي!». وتحته عنوان آخر: «ضحى الكناني تلبس الحداد وتشارك الشعب غضبته». وبعرض ثلاثة أعمدة وضعت الجريدة صورة ضحى بملابسها السوداء وسط المتظاهرين.

كانت مرفت مضطربة قالت: «إنني خائفة عليكِ يا ضحى». تفحصت ضحى الجريدة ولم ترد. لم تكن قد أفاقت تماما من خدر النوم.. كررت مرفت: «أقول لكِ إنني خائفة». قالت ضحى في هدوء: «صباح الخير».

(23)

آمـــنة

كان هذا هو أسعد يوم في حياة أيمن. كان يريد أن يحكي لكل من يعرفه ما حدث. كان يريد الناس جميعًا أن تعرف أن له الآن أمًّا مثل باقي البشر وأنها حية لم تمت. كان يريد أن يقول إنه قابلها وإنها أحاطته بذراعيها وبكت وهي تقول له إنها لم تره منذ كان عمره سنة واحدة.

كان المشهد مؤثرًا. فما إن سقطت الأم مغشيًّا عليها حتى أدرك أنها عرفته. كان سقوطها هو البرهان بأنها أمه وبأنه ابنها.

حين أفاقت ظلت تربت عليه وكأنها غير مصدقة أنه بين ذراعيها. ظلت تنظر إليه وتتلمس وجهه الذي أخذت قسماته تتراقص في عينيها المليئتين بالدموع. لم يصدر عنها صراخ ولا نحيب. كان بكاؤها صامتًا حزينًا.

تصارعت الدموع التي في عينيه لوهلة مع ابتسامة وجهه التي سرعان ما انتصرت فكست كل قسمات وجهه. قالت الأم: «كبرت يا أيمن . صرت رجلًا». قال: «أشعر أنني لا أزال طفلًا صغيرًا .. لقد ولدت الآن فقط».. «من هذا يا أمي» صاحت الفتاة ثانية. «إنه أخوك يا مروة» ردت الأم وكأن كلماتها تكفي لتوضيح هذا الموقف العجيب الذي ظل مستعصيًا على فهم

الفتاة المسكينة وقد فزعت لمشهد والدتها الملقاة على الأرض أمام باب الشقة، ثم دهشت لمشهدها وهي تحتضن ذلك الغريب وتقول إنه أخوها.

أغلقت الأم باب الشقة وأخذت ابنها إلى غرفة الاستقبال. جلسا متلاصقين على الأريكة المقابلة لباب الحجرة وجلست مروة على الكرسي المجاور تستمع لحديثهما.

قال أيمن بعد أن استجمع قواه: «كان قلبي دليلي يا أمي. كنت أعرف أن لي أمًّا. لم أصدق أنكِ متِّ. قلبي كان يقول لي إنك حية ترزقين». «ومن قال لك إنني مت؟» سألت الأم وعلى وجهها علامات الأسى. لم يرد. قالت وكأنها سمعت الإجابة: «سامحه الله على كل شيء».

ساد الصمت بينهما للحظات وهي تتطلع إلى وجه ابنها، إلى هيئته التي أمامها، من شعر رأسه الذي تهدل على جبهته كما كان يتهدل وهو طفل رضيع إلى الـ «تي شيرت» الذي كان يرتديه وبنطلونه «الجينز» وحتى حذاء الرياضة الأبيض الذي في قدميه. «كم كبرت يا أيمن. لو أني صادفتك في الطريق لما عرفتك». قال: «أنا كنت سأعرفك يا أمي. قد كنت أبحث عنكِ في كل مكان. في وجوه السيدات في الشوارع وفي مخيلتي..».

انتحبت الأم وهي تضم ابنها من جديد إلى صدرها. نظرت إلى ابنتها وقالت: «اعملي لأخيك كوب عصير ليمون يا مروة». نهضت الفتاة في صمت وهي لاتزال تحت تأثير الصدمة دالفة إلى خارج الغرفة.

بكت الأم بكاءً مريرًا وهي تروي لابنها كيف كانت تشعر بالحرمان القاتل طوال تلك السنين، وكيف أنها حاولت دون جدوى أن تعرف طريق مدرسته هو وشقيقه كي تشاهدهما ولو من بعيد دون علم والدهما. قالت

إنها كانت تعرف في قرارة نفسها أنها ستلتقي ولديها في يوم ما، لكنها أبدًا لم تتصور أن تفتح باب البيت لتجد ابنها أمام عينيها، وتسمعه بأذنيها يناديها «أمي!».

سألت الأم: «أين عبد الصمد يا أيمن؟ كيف حاله؟». «بخير يا أمي» كان الرد. سألت ثانية: «لماذا لم يأتِ معك؟» قال: «إنه يستعد للسفر إلى الكويت خلال أيام. ثم إنني لم أكن متأكدًا أنني سألقاكِ هنا». قالت: «كم أتوق لرؤيته قبل أن يسافر. لم يكن قد أكمل عامه الخامس بعد. لكنه كان يعي كل شيء. كان يتحدث تمامًا كالكبار. لابد أنه يتذكرني». قال أيمن بعد لحظة تردد: «.. نعم».

على الحائط المقابل له كانت هناك صورة كبيرة لأمه مع زوجها الجديد. كانت تبدو فتاة في العشرينيات. ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، لكن وجهها كان ينضح بحزن دفين لا يلاحظه إلا من يتمعن في الصورة طويلًا كما فعل هو. الرجل الواقف إلى جوارها كان نحيفًا بعض الشيء ويرتدي حلة عصرية بدت فضفاضة وكأنه استعارها من أجل هذه الصورة.

كم هي جميلة أمه. نظر إلى وجهها فوجد الجمال فيه لا يزال، وإن بدت بعض التجاعيد الدقيقة على جانبي عينيها. كان شعرها ناعمًا لم يزحف الشيب إلى ليله البهيم إلا عند مفرقه بقمة رأسها، التي انزاح عنها المنديل حين سقطت على الأرض.

على أن أكثر ما أسر لُبَّهُ كان عينيها الحانيتين، واللتين شعر في تلك اللحظة كم كان يفتقدهما. فرغم أنه كان يراهما لأول مرة إلا أنه شعر وكأنه كان يعرفهما. كأنه شاهدهما من قبل، ربما في طفولته، فاختزن عقله الباطن نظرتهما الحزينة طوال تلك السنين.

أخرجت الأم من صدرها الدلاية المعلقة في السلسلة التي أحاطت برقبتها. كانت عبارة عن إطار مستدير في حجم العملة. من ناحية كانت به صورته وهو طفل، ومن الناحية الأخرى كانت صورة شقيقه الأكبر عبد الصمد. اغرورقت عيناهما من جديد وهما ينظران للصور.

عادت مروة بكوب الليمون فوضعته على المنضدة أمام الأريكة دون أن تتكلم شعرت الأم بأن عليها أن تطيب خاطر ابنتها التي لم تكن تعرف حتى هذه اللحظة أن والدتها كانت متزوجة في القاهرة قبل زيجتها الحالية وأن لها ابنين: «انظر إلى أختك يا أيمن. أليست جميلة. إنها عروسة كما ترى ويأتيها العرسان كل يوم». احمر وجه الفتاة خجلًا أمام أيمن الذي لا يزال غريبًا عليها وهمت بالخروج. مد شقيقها يده إليها وهو يقول: «أتمنى أن يرزقها الله بابن الحلال فهي تستحق كل خير». صافحته مروة في هدوء دون أن تنطق وجلست مكانها. لماذا لم تقل لها أمها كل ذلك؟ .. لماذا أخفت عنها هذا الماضي الذي يخصها كما يخص أمها؟

«ألم يقل لكما أبوكما أي شيء عني؟» قالت الأم . رد عليها أيمن: «لا لم يقل. لقد عشنا طفولتنا متصورين أن زوجته هي أمنا. وحين علمنا بالحقيقة لم يقل لنا إلا أنك مت، وقد صدقه عبد الصمد لكنني كنت أشعر طوال الوقت أنكِ موجودة وأنني سألقاكِ في يوم ما».

نظر كل منهما إلى الآخر فقالت الأم: «كم أنا سعيدة أنني وجدتك ثانية يا أيمن. كنت أعيش بلا روح. لقد رددت إليَّ اليوم روحي» . قال لها: «لقد رددت أنت لي نفسي التي كنت أبحث عنها».

(24)

الحـــلم

حلمت ضحى بأشرف في نومها في الوقت الذي حلم هو بها في يقظته. حلمت بأن الحياة أصبحت جميلة وزال القبح الذي كان يسيطر على كل شيء من حولها. الحياة السياسية كانت قبيحة وحياتها الخاصة كانت قبيحة والشوارع والبيوت والمحلات التي كانت تضارع في جمالها أكبر عواصم العالم كانت هي الأخرى قبيحة. لكن حلمها كان جميلًا. كانت البلاد قد عادت كما كانت تذكرها في طفولتها وساد العدل بين الناس. أما حياتها الشخصية فكانت غاية في الهناء، فقد كان الدكتور أشرف إلى جوارها يشاركها حياتها الخاصة والعامة معًا، وتحققت سعادتها الشخصية التي حرمت منها منذ تزوجت مدحت الصفتي.

أما أشرف الزيني، فقد كان وحيدًا في محبسه. كان قد فقد حريته لكنه أدرك أنه وجد كنزًا ثمينًا لم يكن يتخيله. كانت دهشته كبيرة حين وجد ضحى في المظاهرة. خيل إليه من بعيد أنه رآها لكنه استبعد ذلك فحياتها كانت تحول دون خروجها في المظاهرات. صحيح أنه وجد فيها حسًا وطنيًا واضحًا حين قابلها، لكن ذلك كان في الخارج ولابد أنها حين عادت إلى مصر عادت لحياتها القديمة، فالإنسان لا ينتقل من أسلوب حياة إلى آخر بهذه السهولة، خاصة إذا كان الأسلوبان على طرفي نقيض.

من أجل هذا لم يشأ أشرف أن يقترب من ضحى أكثر مما ينبغي، كان يعرف أن العلاقة التي نشأت بينهما قربت أو بعدت، هي في النهاية رهن ظروف سفر طارئة سرعان ما تزول ويعود كل شيء إلى سابق عهده. كان يعرف أنه منجذب إليها، وفكر أكثر من مرة أنه من أجل مثل هذه المرأة كان بإمكانه أن يترك حياة العزوبية ويرحب بالرباط المقدس. في الوقت ذاته كان يدرك أن ضحى هي الأخرى منجذبة إليه لكنها لابد نزوة من نزوات السفر لا يجب أن يشجعها أو يأخذها مأخذ الجد. هي نزوة تشايكوفسكي الإيطالية التي استمعا إليها معًا في مطعم الفندق الذي نزلا به في ميلانو. كانت جميلة لكنها سرعان ما انتهت مثل أي مقطوعة موسيقية أخرى. حرص على أن يُبقي العلاقة في حدودها باعتبارها تعارفًا إنسانيًا أوجدته الصدفة البحتة خلال السفر، وانتهى بانتهاء السفر.

هكذا كان يفكر الدكتور أشرف، رغم أن مشاعره كانت في اتجاه آخر. وقد تأكد له بعد عودته للقاهرة ما ذهب إليه تفكيره فلم تتواصل العلاقة بعد انتهاء الرحلة. فبدأ يشعر بأنه كان على حق في أنه لم يسمح لتلك العلاقة أن تتطور. وبالإضافة إلى أن ضحى لم تكن له. هي في النهاية زوجة رجل آخر.

لكنه حين شاهد ضحى في المظاهرة تغير كل هذا. فوجودها أثبت له أن كل تصرفاتها في إيطاليا كانت صادقة، وأنها حين قالت له إنها لا تنتمي للحزب الحاكم كانت صادقة، وأنها حين قررت حضور مؤتمر منظمات المجتمع المدني كانت صادقة. لكن أكثر ما أكده له وجودها في المظاهرة هو أنها له وليست لغيره مهما كان هناك من رباط بينها وبين أي رجل آخر.

هذا هو ما دفعه للذهاب إلى حيث كانت تقف في المظاهرة كي يتأكد أن تلك التي شاهدها من بعيد هي بالفعل ضحى الكناني التي أمضى معها

بعض أجمل أيام حياته ما بين روما وميلانو وپالرمو، والتي خفق لها قلبه عند نافورة العشاق كما لم يخفق لأي امرأة أخرى.

وكانت اللحظة التي تأكد فيها من شخصيتها هي تلك التي هددها فيها ذلك الضابط الوقح بالضرب، وهو ما دفعه للتدخل فألقى القبض عليه، وإن كان يعرف أن تلك الإجراءات لا تحدث من وحي الساعة، وإنما لابد أن يكون قد صدر بها أمر مسبق وإلا لما أقدم الضابط على اعتقاله. وعلى أي حال فإن الاعتقال كان من الأشياء التي كان يتوقعها في أية لحظة ولم يكن مفاجأة.

لكن ذلك كله لا يهم. ما كان يهمه في الزنزانة القذرة التي تم اقتياده إليها هو أنه وجد ضالته. شعر بأن حياته الشخصية ربما تكون قد تحققت وأنه وضحى سيتمكنان معًا من تحقيق آمالهما المشتركة.

أما ضحى، فكان حلمها أكثر عاطفية. شعرت بوجود أشرف معها في فراشها. اقتحمتها تلك الرائحة التي أعلن بها عن نفسه في بداية لقائهما والتي ظلت معها وكأنه قد طبعها على جسدها منذ اللحظة الأولى للقائهما، كما تحدد ذكور الحيوانات برائحتها حدود ملكيتها التي ليس من حق أحد أن يتعدى عليها. الآن عرفت لماذا وجدت تلك الرائحة منفرة في البداية، ولماذا أصبحت الآن هي الخيط غير المرئي الذي يربط جسديهما في عناق رفضته في الطائرة وصارت تتطلع إليه في إيطاليا وها هي تعيش فيه الآن في الحلم.

كانت تلك هي أول تجربة جنسية مكتملة لضحى. لم تكن هناك عوائق ولا موانع تحول دون الاكتمال كما كانت الحال مع مدحت الصفتي. أحست لأول مرة بنشوتها تكتمل مع نشوة أشرف الذي لم يشكُ من أن لديها برودًا جنسيًّا.

قررت ضحى أنها لن تكون إلا لأشرف الزيني، وقرر هو أنه سيخوض كل المعارك من أجل الفوز بضحى الكناني التي اغتصبت منه كما اغتصبت البلاد من أصحابها.

صحت ضحى من حلمها وقد ملأها شعور أثيري غريب. ظلت لفترة مستلقية في فراشها لا تريد أن تتركه حتى لا تضيع منها تلك اللحظة النادرة التي عرفتها في حلمها. حين نهضت في النهاية وجدت نفسها وحدها بمنزل شقيقها. رن جرس تليفونها أكثر من مرة. لم ترد. لم تجد في نفسها حاجة للتواصل مع أي إنسان في ظل ذلك الشعور بالهناء الذي ملأ كيانها كما لم يحدث من قبل.

وفي لحظة الصفاء هذه تفتحت أمامها خطوط جديدة للتصميمات التي كانت تبحث عنها لأزيائها. جلست على منضدة حجرة السفرة وأخذت تعبث بأقلامها الملونة على الورق فأبدعت أناملها خطوطًا جديدة تمامًا. كانت الأزياء هذه المرة للمرأة العاملة التي تحتاج زيًّا بسيطًا وعمليًّا لكنه جميل في الوقت ذاته، وليس لصديقاتها القدامى من زوجات المسئولين اللاتي لم تعد تجد في نفسها أي رغبة في التواصل مع أي منهن. كانت فراشة «النمر» المصرية هي مصدر إلهامها بألوانها الجميلة، وأيضًا بجسدها الأسود المر الذي كان يصيب من يحاول التهامه بالتسمم.

انطلقت الرسوم من بين يديها في سرعة ويسر. رن جرس تليفونها ثانية. لن ترد. رن جرس الباب. لم ترد. أخذ يرن طويلًا أحست أن واجبها أن تجيب الطارق، ربما كان وراءه أمر مهم لشقيقها أو لزوجته .

تركت الأقلام والأوراق على المنضدة وذهبت إلى الباب متمنية في داخلها أن يكون الطارق قد مل الانتظار وذهب حتى تعود لرسومها. فتحت الباب

فوجدت أمامها رجلين. بادرها أحدهما بالسؤال: «السيدة ضحى الكناني؟». قالت: «نعم». قال: «تفضلي معنا». قالت: «إلى أين؟». قال: «نريد أقوالك في بعض الأمور». أحست أن الأمر قد يتعلق بالدكتور أشرف، فاستأذنت في أن تحضر حقيبة يدها من الداخل وتعود.

حين عادت وجدت أمام الباب إلى جانب الرجلين ما بدا أنهما مخبران رغم أنهما كانا يرتديان الملابس المدنية. قالت للرجل الذي حدثها في البداية: «هل معك إذن من النيابة يا حضرة الضابط؟». لم ينف أنه ضابط، فقط قال لها: «إذن بماذا؟» قالت: «بالقبض علي». قال: «ليس هناك قبض. هي ربع ساعة على الأكثر وتعودين».

(25)

غابة قصر النيل

في المساء دخل عبد الصمد إلى المنزل دون أن يكلم أحدًا. اتجه مباشرة إلى غرفته. وجد أيمن مستلقيًا على فراشه ينظر إلى السقف. لم يُحَيِّه. كان أيمن يتطلع لأن يحكي لأخيه عما حدث. كان يجب أن يروي لأحد حتى لا ينفجر صدره الذي لم يعد يتسع لتلك الحياة العريضة التي تفتحت أمامه في ذلك اليوم. لم يكن الشقيقان قد تبادلا الحديث في هذا الموضوع منذ سنين. لكن اليوم كان على أيمن أن يخبر أخاه بكل شيء. فما إن دخل عبد الصمد الغرفة حتى قام أيمن من سريره، وصاح في أخيه: «عبد الصمد! اليوم تحقق الأمل». لم يجب عبد الصمد. تفحص أيمن شقيقه وهو يسأله: «ماذا بك كأنك مات لك أحد؟» قال له عبد الصمد: «لقد فقدت اليوم كل شيء»، ثم خر جالسا على الفراش ووضع رأسه بين يديه وانخرط في البكاء. بكى لأول مرة منذ وقع له الحادث. بل لأول مرة منذ زمن بعيد. استغرب بكاءه فهو عادة لا يبكي. متى كانت آخر مرة بكى فيها؟ لا يذكر. لم يستطع التوقف عن البكاء. كان بكاء لا إراديًّا لا يعرف من أين جاء. كأنه كان مختزنًا منذ الصباح انتظارًا للقاء شقيقه حتى ينطلق.

وضع أيمن ذراعيه فوق كتفي شقيقه الأكبر وهو جالس إلى جواره، وحاول أن يهون عليه دون أن يعرف سبب بكائه. توقع أن الأمر يتصل

بمشروع سفره فهو لم يكن يشغله إلا هذا الموضوع. سأله: «ماذا حدث؟ ألن تسافر إلى الكويت؟» تخلص عبد الصمد من ذراع أخيه وذهب يجلس على السرير الآخر وهو يقول: «لا لن أسافر» فسأله أيمن: «كيف ذلك؟ ماذا حدث؟» رد عليه:«لا أعرف. لا أعرف ماذا حدث. لقد خدعت وضاع مني المبلغ الذي اقترضته». صاح أيمن: «الخمسة آلاف جنيه؟» رد عبد الصمد وقد توقفت دموعه وبدأ يستعيد هدوءه: «نعم الخمسة آلاف جنيه. لم يبق منها جنيه واحد» صاح أيمن ثانية: «هل سرقت؟» قال: «نعم سرقت، وأنا الذي سلمت المبلغ بنفسي للسارق».

وحكى عبد الصمد لأيمن ما حدث. قال له إن الحاج عبد المعطي اختفى بمجرد أن تسلم المبلغ وكأنه جن تم استحضاره ثم انصرف. اتصل برقم تليفونه فوجده مغلقًا، وبالطبع لن يفتح ثانية. ربما يكون قد قذف به في النيل. حاول بعد ذلك العثور على عنوان المكتب الذي أعطاه له فاكتشف أنه عنوان وهمي. حاول الاتصال بالشيخة رقية فوجد أن عنوانها الإلكتروني الذي ظل يراسلها عليه طوال الشهور الماضية غير موجود. ألغي كأن لم يكن.

فقال أيمن في انفعال: «إنها عصابة. فلنبلغ عنهم الشرطة. لابد أن لهم سوابق. سأذهب معك إلى قسم البوليس». قال له شقيقه عبد الصمد وقد عاد لأسلوب الأخ الأكبر العارف بكل شيء: «نبلغ عن من؟ عن أشباح لا وجود لها؟ أنا لا أعرف الاسم الكامل للحاج عبد المعطي، وأشك الآن أن يكون هذا هو اسمه. أما الشيخة فإنني أشك الآن أن تكون كويتية أو أن يكون عنوانها الإلكتروني الذي كنت أراسلها عليه في الكويت». فسأله أيمن: «ألم تقل إنك حدثتها على التليفون في الكويت؟» قال:«هي التي كانت تطلبني، وفي كل مرة لم يكن يظهر لي رقم الطالب».

عاد عبد الصمد إلى بكائه ولم يعرف أيمن ماذا يفعل. جلس إلى جوار شقيقه وطوقه ثانية بذراعه في صمت. مضت لحظات أليمة لم ينبس أي منهما بكلمة. بعد برهة كان أيمن هو الذي بدأ الكلام. قال: «أنت لم تفقد شيئًا. ما لم يأت لم يكن عندك حتى تفقده. لم يكن مقسومًا لك». قال عبد الصمد: «بل فقدت الكثير. فقدت الخمسة آلاف جنيه. من أين سأرد هذا المبلغ لأصحابه؟» قال أيمن محاولًا التهوين على أخيه: «أنت الذي جمعت هذا المبلغ وتستطيع أن تجمعه ثانية. سأتعاون معك. لا تيأس. إنك حي لم تمت والحياة ما زالت أمامك». رد عبد الصمد: «بل لقد مت اليوم ولم يعد أمامي شيء. إنه موت وخراب ديار».

سادت لحظة صمت أخرى بين الشقيقين. ثم نهض عبد الصمد فجأة وهم بالخروج من الغرفة. سأله أيمن: «إلى أين أنت ذاهب؟» قال: «لا أعرف. سأتمشى قليلًا فلن أستطيع النوم الآن». قال أيمن: «سآتي معك» لكن عبد الصمد رد عليه: «وجودك لن يفيد بشيء». قال أيمن: « كنت أريد أن أتحدث معك .. أن أروي لك ..» قاطعه عبد الصمد:«أريد أن أختلي بنفسي لأتدبر أمري». وخرج من الغرفة.

هُرع أيمن خلف شقيقه. كان والدهما جالسًا كعادته في الصالة أمام التليفزيون. صدح صوت أم كلثوم بقصيدة الأطلال.. كان صرحًا من خيال فهوى.. قال الأب لعبد الصمد: «إلى أين؟». لم يرد. خرج وأغلق باب الشقة وراءه.

عاد أيمن إلى غرفته وانهار على فراشه يبكي هو الآخر. لم يكن يتصور أنه سيبكي في ذلك اليوم. كان ينتظر قدوم شقيقه بفارغ الصبر حتى يحدثه فيما لا يستطيع أن يحدث فيه أحدًا في البيت. لكن ها هو يكبت مشاعره بين ضلوعه. أكان هذا الكبت هو الذي ولد نوبة البكاء التي انتابته؟ ربما. إن

الفرح حمل ثقيل تمامًا مثل الحزن، إن لم يجد الإنسان من يشاركه فيه انفطر قلبه من شدة العاطفة.

مشى عبد الصمد طويلًا دون مقصد. لا يعرف كم مشى. وجد نفسه بميدان سعد زغلول في الجزيرة أمام سبعي كوبري قصر النيل. كانت دار الأوبرا خلفه وعلى الشاطئ الآخر للنيل تلألأت أنوار الفنادق الفاخرة والمباني الشاهقة. كم بدت هذه المباني غريبة عن منزله ذي الطوابق الثلاث الذي لم يكتمل طلاؤه منذ بُني قبل أكثر من عشرين سنة.

كان الوقت متأخرًا. كاد الليل ينتصف لكن المنطقة كانت تعج بالحياة وبالضجيج كأن الوقت هو منتصف النهار. فوق أحد السباع وقف بعض الشباب يلتقطون الصور لبعضهم البعض وقد صعدوا إلى قاعدة التمثال البرونزي العتيد، ووقف البعض منهم بين ساقي السبع الأماميتين يتقافذون كأنهم نسانيس في هذه الغابة المزدحمة بالحيوانات. ظلوا يهرجون ويضحكون كأنهم سكارى، وكأن الحياة ليست بها مآس ولا كوارث. على جانبي الكوبري كان يقف بعض العشاق، فتيات وفتيان، وقد التصقت أجساد كل عاشقين وهما ينظران إلى الأفق البعيد الواقع خلف الكوبري وخلف أضواء الضفة الشرقية للنيل، كأنهم يتطلعون إلى المستقبل. ولكن أي مستقبل ينتظر هذه المخلوقات البائسة؟! يا لهم من أغبياء جهلاء. قد كان غبيًّا جاهلًا مثلهم، لكن اليوم سقطت غشاوة الجهل عن عينيه وعرف الحياة على حقيقتها. هي غابة متوحشة يأكل فيها الكل بعضهم البعض بالغش والخديعة. حتى هؤلاء العشاق ليس بينهم إلا الغش والخديعة. فكل من هؤلاء الشباب وعد الفتاة التي يحيط خصرها الآن بيديه بالزواج إلى أن ينال ما يريده منها

ثم ستبحث عنه بعد ذلك فلا تجده، سيغير رقم تليفونه المحمول وسيلغي عنوانه الإلكتروني كأن لم يكن.

وعلى الجانب الآخر من الكوبري كان هناك تجمهر من الناس يحيطون بعروس ترتدي ثياب الزفاف البيضاء جاءوا يلتقطون الصور التذكارية لها ولعريسها في هذه المناسبة السعيدة. أين هي تلك السعادة؟ قد يكون هذا العريس من الشباب القليلين الذين صدقوا وعدهم، لكن الخديعة لابد ستبدأ بعد الزواج. فهذه هي سنة الحياة. هي شريعة الغاب.

ماذا سيفعل بحياته؟ وإلى أين يمضي؟ لا يعرف. أكمل سيره حتى نهاية الكوبري، ثم اتجه يمينا على الكورنيش. كان النيل على يمينه وفندق سميراميس على يساره. مشى على غير هدى ما يقرب من خمسمائة متر. تخطى فندق سميراميس وفندق شبرد ثم السفارة البريطانية وفندق «فور سيزونز». عند منزل فندق «جراند حيات» الواقع وسط النيل توقف. لا يعرف ماذا يفعل، ولا أين يذهب. وقف ينظر في بلاهة إلى السيارات النازلة من الفندق في تتابع ممل، الواحدة تلو الأخرى.

لابد أنه وقف في مكانه طويلًا غير قادر على اتخاذ قرار، فحين توقفت السيارة أمامه تذكر أنه شاهدها تمر من قبل. لابد أن سائقها مر بها أمامه ثم لف وعاد من جديد قبل أن يتوقف ثانية ويفتح له الباب. تقدم عبد الصمد إلى الباب المفتوح ودخل السيارة كأنه كان ينتظرها وأغلق خلفه الباب فتابع سائقها السير.

كانت سيارة متوسطة الحجم لونها أسود لم يتبين نوعها. أما السائق فكان يبدو في العقد الخامس من عمره، متوسط الوزن ذا شارب رفيع ذكَّره ببعض ممثلي الأفلام الأجنبية القديمة التي كانت تعرض بالتليفزيون.

كان كالسائر في نومه توجهه قوة خفية لا يملك حيالها شيئًا. لا يعرف لماذا قَبِلَ دعوة هذا الرجل الذي لا يعرفه وركب معه السيارة دون لحظة تفكير واحدة، ودون أن يعرف إلى أين هو ذاهب. لم يخالجه أي قدر من التردد . لماذا يتردد؟ التردد يكون حين يوازن الإنسان بين شيئين ليختار بينهما، أما هو فلم تكن أمامه خيارات. لم يكن أمامه أي شيء. كان قد فقد كل شيء ولم يبق لديه ما يخشى عليه. المستقبل راح، والمال راح. بل قد كان عليه الآن أن يعيد هذا المبلغ الذي اقترضه والذي لم يكن يحتكم على جنيه واحد منه . وجد نفسه في موضع سلبت منه كل الخيارات وأقفلت في وجهه كل الأبواب فانسدت كل المخارج وبات كالسجين الذي فقد إرادته وأصبح عليه أن يطيع كل ما يصدر إليه من أوامر وأن ينفذ ما يطلب منه من طلبات.

أفاق على صوت الرجل يسأله: «ما اسمك؟» كان صوته نحاسيًّا حادًّا كنوبة الصحيان العسكرية. صوت رفيع مثل الشارب الذي على وجهه. رد عبد الصمد: «سمير». قال الرجل: «عيناك كعيني الصقر، جذبتاني إليك كالفريسة». لم يرد. بعد برهة قال الرجل: «إلى أين أنت ذاهب؟» قال: «لا أعرف». انطلق الرجل بالسيارة وسط ظلام الليل إلى أغوار شوارع ضاحية جاردن سيتي الملتوية كالمتاهة التي لا خروج منها.

(26)

الاعتقال

حاولت مرفت الاتصال بضحى على تليفونها المحمول فوجدته مغلقًا. كانت مرفت قد عادت بعد ظهر ذلك اليوم فلم تجد ضحى بالبيت. تصورت أنها لابد عائدة بعد قليل. مضت الساعات ولم تعد. بدأت مرفت تقلق. وجدت رسوم التصميمات الجديدة على منضدة الطعام كما هي، كان من الواضح أن ضحى قد تركتها فجأة دون أن تكملها ودون أن تلملمها.

حين عاد طلعت بعد الظهر قالت له مرفت إنها قلقة على ضحى بعد أحداث الأيام الأخيرة. انتظراها على العشاء فلم تحضر ولم تتصل لتقول إنها ستتأخر. تخطت الساعة الحادية عشرة مساء لكن ضحى لم تعد. ولم يعرف طلعت أين يبحث عنها أو بمن يتصل. تذكرت مرفت أنها حدثتها عن أنها ذهبت إلى مظاهرة دار القضاء العالي مع صديقتها الدكتورة مشيرة عبدالرحمن أستاذة الجامعة. تمكنت مرفت بعد بحث طويل من الوصول إلى رقم تليفون الدكتورة مشيرة بين أوراق ضحى. كانت الساعة قد تخطت الآن منتصف الليل. تردد طلعت في الاتصال بها، لكن مرفت ألحت عليه فطلب منها أن تكلمها هي أفضل.

اعتذرت مرفت للدكتورة مشيرة عن هذه المكالمة المتأخرة وقالت لها إنها هي وزوجها قلقان جدًّا على ضحى، فهي لم تعد حتى الآن. قالت مشيرة بنبرة تقريرية: «للأسف إن ضحى تم إلقاء القبض عليها، وهناك مجموعة

من المحامين من جمعية حقوق الإنسان يحاولون الوصول إليها، لكن لا أحد يعرف مكانها بالضبط، فإذا وصلتكم أية أخبار عنها رجاء الاتصال بي في أي ساعة من الليل أو النهار».

كانت الصدمة شديدة على كل من مرفت وطلعت. لم يحدث أن اعتقل أحد من العائلة أو من معارفهما من قبل. لم يعرفا ماذا يمكنهما أن يفعلا في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

لم ينم طلعت الليل. وفي الصباح كان أول ما فعله أن اتصل بمدحت الصفتي. وهو في حالة غضب شديدة، فلا يمكن أن يكون قد ألقي القبض على ضحى دون علم مدحت، فهي حتى اللحظة على ذمته. قال له: «كيف تعتقل زوجتك يا مدحت؟ أليس لديك أي نوع من النخوة؟». كان مدحت هادئًا. قال: «أنا لا علاقة لي بالموضوع. هذا قرار الحزب. لقد أوصلت شقيقتك الموضوع إلى درجة لم يعد من الممكن السكوت عليها، ونحن الآن في فترة حرجة . لقد سبق أن طلبت منك أن تجعلها تلتزم البيت حتى تتم الانتخابات وينتهي الموضوع على خير. لكن المسألة الآن خرجت من يدي. إن هذا هو قرار عمي عبد الرحمن «بك» شخصيًا ولا يمكن لأحد مراجعته فيه».

صرخ طلعت في التليفون: «لكن هذا جنون! هل وصلت بكم الحال إلى اعتقال ذويكم من أجل البقاء في الحكم؟». رد مدحت وهو على الدرجة ذاتها من الهدوء: «إن كان هذا سؤالًا فليس لدي رد عليه.. وإن كان استهزاء فإن ردي لن يعجبك». قال طلعت. «إنكم تضرون أنفسكم أشد ضرر. إنه خطأ سياسي فادح كيف..» قاطعه مدحت بحدة: «منذ متى تفهم في السياسة أو تهتم بالشأن العام؟ ماذا حدث لعائلتكم الكريمة يا طلعت بك؟ فجأة

تسيستم جميعًا؟ فجأة صرتم ثوريين؟ أختك تخرج في المظاهرات وتدلي بأحاديث نارية لصحف المعارضة، وسيادتك تعطيني درسًا في السياسة وتعرفني ما الخطأ وما الصواب!». قال طلعت: «الحقيقة أن الأمر لم يعد بحاجة إلى سياسيين أو ثوريين لتبيُّن أن نهايتكم أصبحت قريبة». «آسف، عند هذا الحد ينبغي أن أنهي المكالمة».

كان هذا هو آخر ما قاله مدحت في التليفون قبل أن يغلقه. سألت مرفت زوجها: «ألم تعرف منه أين ضحى؟». قال طلعت: «لم يقل لي». قالت: «كان عليك ألا تنفعل عليه حتى تتمكن أولًا من معرفة مكان ضحى». قال وهو ساهم: «لم يكن سيقول لي مهما حدث».

(27)

المصـــالحة

«أين أخوك؟.. منذ خرج ليلة أمس لم يعد. لقد قاربنا على المغرب دون أن يظهر. وأنت أمضيت يوم أمس كله خارج البيت وعدت فدخلت غرفتك دون سلام ولا تحية. ماذا حدث لكما؟! هذا البيت ليس فندقًا تجيئونه فقط من أجل المبيت دون اعتبار لمن فيه».

كان والده في موجة عارمة من الغضب والانفعال، لكن أيمن سعد أنه مهد له الطريق بهذه الزوبعة كي يروي له ما كان يتوق لأن يحكيه لأي إنسان. أو ربما كانت تلك وسيلة الأب في السؤال عما جرى في رحلته. قال له: «لا أعرف أين أخي. ربما كان عنده عمل. أما أنا فقد كنت بالأمس عند أمي». نزلت الكلمات على والده كالصاعقة. لم يكن يتصور أنه سيصل إليها بهذه السرعة. قال:«ماذا تقصد؟» رد عليه: «أقصد أنني كنت بالأمس عند أمي .. بحثت عن أمي إلى أن عرفت مكانها وذهبت إليها كما قلت لك. أمضيت معها النهار. طلبت مني أن أبيت الليل لأرتاح من عناء السفر لكنني فضلت أن أعود إلى البيت». سأله والده:«أين وجدتها؟». رد عليه: «في طنطا». بدأ الأب يلين: «صدقني يا ولدي لم أكن أعرف مكانها حتى أخبرك». «لكنك كنت تعرف أنها حية ترزق» كان رد الابن.

تأثر الرجل لحديث ابنه ولم يعرف ماذا يقول. ساد بينهما الصمت بضع

لحظات. قطعه الابن قائلًا: «لماذا طلقتها؟» «ألم تقل لك؟» كان رد الأب. هز أيمن رأسه أن لا. جاء رد الأب: «دعها هي تخبرك». قال الابن: «قالت لي إنك ظلمتها وأهنتها وطردتها من البيت ثم أرسلت لها ورقة الطلاق». سكت الأب قليلًا ثم قال وقد ظهرت على وجهه علامات التأثر: «هي التي ظلمتني وأهانتني فلم يعد لها عندي مكان».

«قل لي يا أبي ماذا حدث؟ من حقي أن أعرف». بدا في صوت الأب نبرة انكسار وهو يقول: «ما حدث حدث، وقد كان بيني وبين أمك. لن أنكأ تلك الجراح. إن أرادت هي أن تخبرك فلتفعل. أما أنا فلن أتحدث في هذا الموضوع ثانية».

صمت الأب وكأن هذا آخر ما سيقوله في حياته. وصمت الابن حزينًا بائسًا. طال الصمت حتى قال الأب: «الماضي يتوارى يا بني كالمجرم الهارب من الناس. فدعه. لا تبعثه من جديد». ظل أيمن ينظر إلى وجه والده الذي خفض بصره في صمت. كانت نظرات الأب لا تزال صارمة، لكن وجهه كان قد فقد الكثير من هيبته القديمة، وأضافت لحيته التي اختلطت فيها الشعيرات البيضاء والسوداء مزيدًا من السنين لعمره. بدت أحزانه أضعاف حزن ابنه. كانت أحزانه قديمة عتقتها السنون، وزادها الصمت عتمة وسوادًا.

قرر أيمن ألا يخوض بعد اليوم في علاقة والديه وما أدى لانفصالهما. إن ما يهمه هو علاقته هو شخصيًّا بكل منهما. لقد كان حريصًا على علاقته بأمه التي وجدها بعد غياب سنين بقدر حرصه على علاقته بوالده الذي رباه طوال تلك السنين. أما علاقة الزوجين القديمة فلا شأن له بها. لن يدعها تفسد علاقته بأي منهما.

ارتاح أيمن لقراره هذا. قطع الصمت صوت والده يقول: «سامحني

يا ابني» كان صوته متهدجًا فلم يجادله الابن. اكتفى بالقول: «إن حياتي الآن تبدأ من جديد. لا أريد أن يكون عثوري على أمي ثمنه أن يضيع مني أبي. ومهمـا تألمت من حـرمانك لي مـن أمي فإنني سأظل أدين لك بكل ما فعلته من أجلي».

طفر الدمع في عيني الابن والأب معًا، واحتضن الأب ابنه في حنان أبوي لم يعهده الابن من قبل.

(28)

تمام يا باشا !

كانت ضحى قد نزلت مع الرجلين متصورة أنهما صادقان، لكن حين همت بأخذ سيارتها من أمام المنزل قالا لها: «لا داعي للسيارة». هنا أدركت أنها قد ألقي القبض عليها. كانت سيارة الشرطة السوداء القبيحة تنتظرها كالمجرمين والخارجين على القانون. أجلسوها في الخلف بين المخبرين وجلس الرجلان في الأمام مع السائق.

بمجرد أن تحركت السيارة أخرجت ضحى تليفونها في هدوء ووضعت اسمها بسرعة على الرسالة التي أملتها إياها الدكتورة مشيرة وأرسلتها إلى غرفة العمليات. لمحها أحد الرجلين الجالسين في الأمام. قال لها: «التليفون ممنوع»، ثم مد لها يده فاضطرت لتسليمه التليفون. أغلقه ووضعه في جيبه.

مضت بها السيارة من المهندسين صاعدة كوبري 6 أكتوبر العلوي، ثم انحرفت يمينًا على الكورنيش متخطية كوبري قصر النيل على اليمين، وسلسلة الفنادق الفاخرة على اليسار. تابعت ضحى الطريق جيدًا كي تعرف إلى أين هي ذاهبة. عند وصول السيارة إلى كوبري المنيل ناولها أحد الرجلين وشاحًا طلب منها أن تعصب به عينيها ففعلت تاركة مساحة صغيرة غير ملاحظة أسفل الوشاح تستطيع من خلالها أن تتابع اتجاه السيارة. انحرفت السيارة يسارًا فوصلت إلى شارع قصر العيني. عند هذه النقطة توقفت السيارة على

جانب الطريق ونزل أحد الرجلين ففتح الباب الخلفي حيث كانت تجلس وقام بإحكام الوشاح حول عينيها حتى كاد يفقأهما. قالت له إن ذلك يؤلمها، فرد: «هي دقائق فقط وسنرفعه تمامًا». كان الوشاح قذرًا. بدأت رائحته تضايقها، وما بين الألم الذي أحست به في عينيها ورائحة الوشاح الكريهة فقدت ضحى تركيزها فلم تعرف إلى أين مضت. بعد حوالي ربع الساعة توقفت السيارة وأنزلها الرجلان اللذان ألقيا القبض عليها ومضيا بها وسط ظلام عينيها المعصوبتين في طريق مستقيم ثم دخلا بها إلى مبنى انحرفا بداخله يسارًا، فركبت مصعدًا أحست أنه لا يصعد إلى أعلى وإنما ينزل إلى أدوار سفلية. خرجت من المصعد ومشت مع رفيقيها مسافة قصيرة، ثم فتح باب سمعت أزيز مفصلاته. بمجرد أن اجتازته سمعته يغلق خلفها، ثم قام أحد الرجلين اللذين صاحباها بفك الوشاح من على عينيها فوجدت نفسها داخل غرفة بدت أنها مكتب حكومي. كان بها مكتب كبير أمامه كرسيان ومنضدة صغيرة وتعلوه صورة الرئيس. على الجانب الآخر من الغرفة كانت هناك أريكة جلدية ومقعدان كبيران.

«تفضلي حضرتك» قال أحد الرجلين مشيرًا إلى الأريكة. كانت رؤيتها لا تزال غير واضحة بسبب ضغط الوشاح على عينيها، لكنها تبينت ملامح الرجلين فأدركت أنها لم ترهما من قبل. خرجا وتركاها وحدها في الغرفة. نظرت في ساعتها عدة مرات إلى أن تبينت أنها الثالثة بعد الظهر.

جلست ساكنة وقد شل تفكيرها. لم تستوعب ما حدث. مر عليها أكثر من ساعة دون أن يدخل عليها أحد. بعد قليل فتح الباب ودخل رجل بدا أنه فوجئ بوجودها، أو أنه دخل الغرفة خطأ. همت بسؤاله عما يجري، وأين هي، لكنه خرج بسرعة قبل أن تفتح فمها وأغلق الباب.

بعد دقائق، سمعت مفتاحًا يدور في الباب. هل كان لفتحه أو لإغلاقه؟.. انتظرت خمس دقائق ثم ذهبت إلى الباب، ووضعت أذنها عليه محاولة معرفة

إن كانت هناك أية أصوات في الخارج. لم تسمع شيئًا. سكون غير معهود في المكاتب الحكومية، وكأن مواعيد العمل لم تبدأ بعد. حاولت فتح الباب فوجدته مغلقًا. عادت إلى مقعدها تنتظر.

تذكرت أن المصعد هبط بها ولم يصعد، هل هذا هو سبب هذا السكون المخيف كأنه سكون القبر؟ يا ترى كم طابقًا نزلت بالمصعد؟ كم طابقًا هي تحت الأرض الآن؟ أحست لأول مرة بالخوف، فهي تواجه المجهول الذي لا تعرف كنهه ولا تعرف متى سينتهي، أو إن كان سينتهي. تذكرت ما كانت تقرأه في الصحف بين الحين والحين عن أناس اختفوا ولم يُعرف عنهم شيء. ما كان يزيد من إحساسها بالخوف هو أنها كانت تواجه المجهول وحدها كما واجهت كل أزماتها وحدها. لا أحد إلى جوارها ولا أحد يعلم عنها شيئًا. ليتها أخبرت شقيقها طلعت أو زوجته أو الدكتورة مشيرة قبل أن تترك المنزل لكنها لم تكن تتوقع أنها ذاهبة إلى هذا القبر الواقع تحت الأرض. لعل الرسالة التي بعثت بها من تليفونها المحمول تؤتي ثمارها، ولكن كيف وهي لم تبعث فيها بمكانها؟!

نظرت حولها إلى تلك الحوائط الجرداء الكالحة. أحست بأنها تضيق عليها الخناق. تطبق على أنفاسها. أخذت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيها حتى لا ترى ما حولها.

مر عليها شريط حياتها كله من طفولتها إلى صباها، ثم مرحلة التمرد التي أجهضت سريعًا بزواجها المبكر، والذي تلته سنوات المعاناة النفسية والعاطفية، ثم ثورتها الأخيرة على تلك الحياة التي فُرضت عليها فرضًا.

ظلت رسومها الأخيرة التي تركتها على مائدة الطعام في منزل شقيقها تلح عليها. إنها انقلاب كامل في تصميماتها الفنية التي لم تعد خطوطًا جمالية فارغة، بل أصبحت تحمل مضمونًا اجتماعيًا جديدًا يستلهم المرأة المصرية الجديدة التي تسعى إلى الحرية والاكتمال.

ظلت ترى وهي مغمضة العينين أشكالًا جديدة تماما تتخلق أمامها، وتصميمات مبتكرة تتدافع وراء بعضها البعض استكمالا للحظة الإلهام التي جاءتها في المنزل قبل أقل من ساعة، والتي انتُشلت منها عنوة. أحست أن بإمكانها الآن أن تنجز تصميمات لعرض أزياء كامل معبر عن فكرها الجديد. وكأن عقلها الباطن الذي تفجرت فيه تلك اللحظة الإبداعية النادرة لا يعبأ بالوضع الذي هي فيه الآن. أو أن الإلهام يتخطى المكان والزمان، فقد يأتي في أي مكان وأي زمان. حتى في السجن أو القبر.

كم كانت تود أن تكمل هذه التصميمات التي لا تعرف إن كانت ستعود إليها ثانية.

هل غفت قليلًا وهي جالسة في مقعدها؟ لكن كيف تغفو وقد نامت اليوم السابق كما لم تنم من قبل؟ أهي حالة نفسية؟ أهو نوم هروبي بسبب إحساسها بالخوف؟ سمعت أصوات تعذيب وصرخات استغاثة. هل سمعتها بالفعل أو أنها تخيلتها في نومها؟ أفاقت على باب الغرفة يفتح ويدخل منه رجل تبدو عليه مظاهر الأهمية ووراءه شخص تابع، قد يكون أحد العساكر، لا تعرف، فقد كان يرتدي ملابس مدنية مثل الرجل الذي جاء معه.

«مساء الخير» قال الرجل وهو يجلس على المكتب. «مساء النور» قالت في اقتضاب. أشار الرجل للتابع أن ينتظر في الخارج فرد عليه: وهو يضرب تعظيم سلام «تمام يا باشا» وخرج. أخرج الرجل أوراقًا من أحد أدراج المكتب وأخذ يكتب فيها دون أن ينظر إليها.

كانت ضحى هي التي بدأت الحديث: «هل يمكن أن أعرف أين أنا، وما المطلوب مني!». قال الرجل دون أن يرفع نظره عن الورق: «أنتِ في الحفظ والصون». قالت: «ماذا تريدون مني؟». قال: «لم تصلنا أية تعليمات

بشأنك بعد. كل ما هنالك أننا نتحفظ عليكِ إلى أن يتضح موقفك». فقالت: «لكن هذا غير قانوني. ليس من حقكم التعامل مع الناس بهذه الطريقة». قال الرجل في أدب بدا لضحى متناقضًا مع فظاظة حديثه: «يجب أن تعلمي أنك تُعامَلين أفضل معاملة. في الأحوال الطبيعية كان يجب أن توضعي في التخشيبة بأحد أقسام الشرطة مع النشالين والمجرمين، لكنك هنا في مكتب حكومي معززة مكرمة. لابد أن لك «ظهرًا كبيرًا» في الحكومة. عليكِ أن تعلمي أنكِ مدينة له». قالت: «لو كنت في أحد أقسام الشرطة كانت أسرتي قد عرفت على الأقل أين أنا». قال وكأنه يكلم نفسه: «ليس بالضرورة».

بعد برهة قالت: «أريد أن أتصل بشقيقي لأطمئنه أنني بخير.. أعرفه أنني لم أسقط في النيل، أنني لم تدهسني سيارة». قال: «التعليمات عندي واضحة: الاتصالات ممنوعة». قالت: «كل قوانين العالم تسمح للمقبوض عليهم بأن يتصلوا بمحاميهم». قال: «لكنكِ لست مقبوضا عليكِ. لم يصدر بشأنك أمر بالقبض». «إذن، فماذا أفعل هنا؟» جاء ردها بسرعة. قال: «أنتِ متحفظ عليكِ فقط إلى أن تصلنا التوجيهات». قالت: «أية توجيهات؟». قال: «لا نعرف.. ربما تكون بإلقاء القبض عليك أو بإيداعك السجن أو بالإفراج عنكِ. فلا تسأليني أية أسئلة لأني في هذا الموضوع لا أعرف أكثر مما تعرفين». قالت: «على الأقل تعرف أين أنا». قال: «هذا لا يدخل في الموضوع». قالت ضحى له ولنفسها: «ماذا عليَّ أن أفعل؟». قال وقد انتهى مما كان يكتبه واتجه نحو الباب: «نصيحتي أن تصبري قليلًا.. تأكدي أنه بمجرد أن تصلنا تعليمات بشأنك سنأتيكِ فورًا».

أخذ أوراقه وخرج، وأغلق الباب خلفه.

(29)

عصمت «بك»

حين نزل عبد الصمد من منزل عصمت «بك» كانت ظلمة الليل قد تراجعت قليلًا وبدأت السماء تنير الدنيا على استحياء وكأن الصبح يتردد في الظهور. سار على قدميه حتى النقطة التي التقطه عندها الرجل بسيارته. كان المنظر مختلفًا. لم يكن هناك أحد بالشارع. اختفت مجاميع الشباب المتسكعين حول الكوبري وكست سبعي قصر النيل مسحة من الحزن. لفت الجو شبورة كثيفة فلم ير وجه سعد زغلول ولم ير في السماء نجمًا واحدًا. لم يكن في الطريق أحد في تلك الساعة الفاصلة بين الليل والنهار سوى بعض الكلاب الضالة التي كانت تعبر الشارع بسرعة وهي مطأطأة الرأس. عبر كوبري قصر النيل عائدًا أدراجه وكأنه بإعادة الفيلم إلى الوراء يمحو أحداثه. كانت مصابيح الكوبري لا تزال مضاءة تنعكس أنوارها على صفحة النيل الذي بدا أسود بلون ملابس الحداد. وقف في منتصف الكوبري ينظر إلى الماء. تذكر المشهد الختامي في فيلم «بداية ونهاية». ففي مثل هذا الموقع وقفت نفيسة بطلة رواية نجيب محفوظ الشهيرة التي احترفت الرذيلة وقد بدت حياتها بلا معنى وبلا قيمة فألقت بنفسها في النيل . كانت معذورة نفيسة فقد كانت تحتاج المال لتربية أخيها الضابط وتلبية احتياجاته، وهو أيضا يحتاج المال.

ملعون عصمت «بك» هذا. حقير. لم يعطه الخمسة آلاف جنيه التي كان يحتاجها. مائة جنيه فقط لا غير قذفها في وجهه قائلا: «من تظن نفسك؟ مارلون براندو؟ أنت لا تساوي شيئا وليست لك أي خبرة». ابن الكلب! وهو من يظن نفسه بهذا الشارب المضحك الذي يبدو وكأنه خرج من أحد الأفلام الصامتة.

مرت دورية شرطة فوق الكوبري. تحسس جيب بنطلونه الخلفي فوجد بطاقته الشخصية في مكانها. تذكر يوم ذهب إلى قسم البوليس لإصدارها وكيف كانت تمثل له جواز المرور إلى حياة مستقلة، لكنه ظل مرتبطًا ببيت والده لم يستقل. ها هو يوم الاستقلال قد حل أخيرًا وعليه الآن أن ينفصل عن والده، وعن منزله، وعن عمله، وعن كل معارفه. لا يجب أن يعرف مكانه أحد فهو مدين بمبلغ لن يستطيع تسديده ولو عمل سنين. الآن عليه أن يتكفل بنفسه دون الاعتماد على أحد. أخرج ورقة المائة جنيه من جيبه. هي بداية جيدة على أي حال. سيذهب إلى أحد الفنادق الشعبية الرخيصة بميدان العتبة أو بالحسين لينال قسطًا من النوم في هذا اليوم الذي لم يكن قد طلع له نهار.

كان النيل لا يزال يبدو داكنًا لم تنعكس عليه أشعة الفجر بعد. شعر به يناديه. لكنه استدار ومضى في طريقه إلى العتبة.

(30)

وزير الدفاع

كان البلد كله يتحدث الآن عن ضحى الكناني زوجة مدحت الصفتي التي انتقدت الحزب، وخرجت بعض الصحف تقول: «اختفاء ضحى الكناني في ظروف غامضة»، والبعض الآخر قال: «أنباء غير مؤكدة عن اعتقال ضحى الكناني». أما الجريدة التي أجرت معها الحديث فأصدرت عددًا خاصًّا حمل عناوين تقول: «الحزب الحاكم يأكل نفسه.. إلقاء القبض على زوجة مدحت الصفتي لمواقفها الوطنية». وأوردت الجريدة سجلًّا كاملًا بأعداد المقبوض عليهم منذ مظاهرة دار القضاء العالي، ضم ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص منهم الرجال والنساء وغالبيتهم من الشباب.

وظهرت جريدة أخرى تحمل عنوان: «انفراد خطير: الدكتور أشرف الزيني من داخل سجنه يطالب الشعب بالعصيان المدني!».

وتطورت الأحداث بشكل غير متوقع فعقد قادة المعارضة وقيادات المجتمع المدني اجتماعًا كبيرًا استمر طوال اليوم، وخلصوا فيه إلى ضرورة التحرك المنظم المشترك فأصدروا بيانًا جماعيًّا باسم ائتلاف القوى السياسية المصرية وقع عليه أهم القيادات المعارضة يطالب بالإفراج الفوري عن المعتقلين.

واعتبر المشاركون في الاجتماع اجتماعهم مستمرًّا إلى أن تتم الاستجابة لمطالبهم.. وما إن نشرت أخبار الاجتماع حتى انضمت إليهم أعداد جديدة من مختلف فئات الشعب، فتحول الاجتماع خلال 24 ساعة إلى اعتصام شعبي مهيب لم تر البلاد له مثيلًا.

ومضت أربع وعشرون ساعة أخرى لم تُبدِ الحكومة خلالها أية استجابة لمطالب المجتمعين. فأصدر الائتلاف بيانه الثاني الذي قال فيه إن شعب مصر قد فاض به الكيل، وأنه يرفض بجميع فئاته التعامل مع الحزب الحاكم الذي خرب الحياة السياسية بإصدار قوانين استثنائية مكنته من إحكام قبضته على البلاد طوال العقود الماضية. وقال البيان إنه قد آن الأوان لأن ينتفض الشعب كي يزيح عن كاهله هذا الحكم الفاسد المستبد الجاثم على أنفاسه. ثم دعا في نهايته إلى تبني دعوة القيادي المعتقل الدكتور أشرف الزيني للعصيان المدني ابتداء من صباح اليوم التالي.

كانت وسيلة الاتصال بين مختلف التجمعات الشعبية التي لبت نداء الدكتور الزيني للعصيان المدني هي الإنترنت والتليفون المحمول، حيث عجزت الصحف والقنوات الفضائية عن متابعة التطورات التي بدأت تتلاحق بشكل غير مسبوق. وهكذا بدأ بث الرسائل على التليفونات المحمولة وعبر العناوين الإلكترونية والتي كانت تدعو كل من يرفض حزب القهر والاستبداد وحكومته الفاسدة أن يبقى في بيته ولا يذهب إلى عمله حتى تتم الاستجابة للمطالب الشعبية التي طرحتها قوى المعارضة. وفي اليوم التالي توقفت البلاد عن العمل، وأصيبت الحياة العامة بالشلل، فخلت المصالح والشركات من الموظفين، وخلت الشوارع من الناس. وبالعدد القليل من الناس الذين لم يلتزموا بالعصيان بدت البلاد وكأنها في حالة ما يعرف بالإضراب البطيء؛ حيث تستمر الحياة اليومية ولكن بإيقاع بطيء للغاية لا يفي باحتياجات العمل.

وهكذا اتضح أمام العالم كله موقف القوى الشعبية من الحزب الحاكم، وتأكد زيف الانتخابات التي كانت تعطي للحزب في كل انتخابات ما لا يقل عن 90٪ من الأصوات، وبدأت وكالات الأنباء الأجنبية تكتب عما أسمته

«أول استفتاء غير مزور تشهده مصر حول شعبية الحزب الحاكم وحجم القوى الشعبية المعارضة».

وإزاء ذلك، قررت الحكومة أخيرًا التحرك؛ فوجه عبدالرحمن الصفتي أمين عام الحزب نداء إلى جميع قواعد الحزب بالتصدي للمؤامرة التي تحاك ضد مصر والتي تدعمها قوى خارجية بغرض زعزعة استقرار البلاد والنَّيل من أمن مواطنيها. وأصدر وزير الداخلية بيانًا قال فيه إنه تم إلقاء القبض على بعض القيادات الشعبية في مؤامرة لقلب نظام الحكم، وأنه ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الدكتور أشرف الزيني الموجود الآن رهن الاعتقال ضالع في هذه المؤامرة الخسيسة التي تم وضع تفاصيلها خارج البلاد.

وأوضح بيان وزير الداخلية أن أجهزة الأمن كانت تتعقب الدكتور أشرف الزيني منذ فترة، وأن لديها معلومات مؤكدة بأنه عاد إلى الوطن قبل أيام قليلة من مظاهرة دار القضاء العالي، وقالت إنه كان في إحدى الدول الأوروبية للقاء عناصر من مخابرات إحدى الدول المعادية، والذين تلقَّى منهم أموالا بغرض إحداث اضطرابات في البلاد تنفيذًا لمخطط واسع النطاق سيتم الكشف عن تفاصيله فيما بعد.

وقال البيان إنه تم مواجهة الدكتور أشرف الزيني بهذه المعلومات فأدلى باعترافات مفصلة في هذا الشأن، وبأسماء أعضاء التنظيم السري الذي كان يخطط لقلب نظام الحكم، وكان من بين الأسماء التي أوردها البيان اسم كل من: مصممة الأزياء ضحى الكناني (دون الإشارة إلى أنها زوجة مدحت الصفتي)، والأستاذة الجامعية مشيرة عبد الرحمن التي ألقي القبض عليها قبيل إعلان البيان بساعات، و 37 اسماً لمعارضين معروفين تم إلقاء القبض عليهم جميعًا بالإضافة لعدد من الشباب كان في مقدمتهم حسن الليثي وهالة عبد الشهيد، وأيمن الحمزاوي وسلوى العليمي.

ونشرت إحدى الصحف تحقيقًا حول مجموعة الشباب الذين تم اعتقالهم، قالت فيه إن سلوى العليمي وهالة عبد الشهيد كانتا تتبادلان المواقع ما بين المظاهرات وغرفة العمليات مع عدد من المتطوعين الذين كانوا يبعثون بالرسائل التليفونية. أما حسن الليثي وأيمن الحمزاوي فقد توصلا إلى طريقة تسمح بتضليل السلطات كلما استخدم أحد النشطاء الإنترنت. فبدلًا من أن تظهر رسالة الناشط لأجهزة الأمن كما هي كانت تظهر بكلمات أخرى تضللهم.

زادت هذه المعلومات الأمور اشتعالًا، ولم تكتف الجماهير بالتزام المنازل بل نزلت إلى الشوارع في مظاهرات عمت جميع أنحاء القاهرة، وانتقلت خلال ساعات إلى الإسكندرية، ثم إلى صعيد مصر وعدد من المحافظات، وذلك بعد أن أحس الناس بأنه لا أمل في عدول الحزب عن وسائله البالية في عدم الاستجابة لمطالب الجماهير، وفي التنكيل بأي قوة سياسية معارضة، فانفجر الوضع وبات من الصعوبة بمكان السيطرة عليه.

وما هي إلا ساعات معدودات وأصدرت الحكومة في اجتماع طارئ قرارًا بحظر التجول لأول مرة منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان، لكن حركة الجماهير كانت أقوى من أي قرار. فلم يلتزم أحد بحظر التجول، فاتخذت الحكومة قرارًا تاليًا دون أن تدعو لاجتماع آخر، وبناء على هذا القرار الذي لم يعلن عنه في الصحف، نزلت قوات الأمن المركزي إلى شوارع القاهرة والإسكندرية وأسوان وطنطا والمنصورة والسويس وبورسعيد وغيرها. لم يكن أحد يتصور أن لدى الأمن المركزي هذا الجيش من القوات الذي يعادل الجيوش العسكرية. على أن نزول الأمن المركزي إلى الشوارع زاد من حدة العصيان والتمرد؛ فتزايدت أعداد المتظاهرين في مختلف المدن ثم انتقلت إلى مدن أخرى.

ووجدت الحكومة نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما الاستقالة والتخلي عن السلطة لأول مرة منذ عشرات السنوات، أو اللجوء إلى الجيش. وفي

اجتماع عاصف للحكومة طلب أمين عام الحزب عبدالرحمن الصفتي من وزير الدفاع الاستعداد للنزول إلى الشارع خلال ساعات.

وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد من الوزراء أو حتى رئيس الحكومة الذي كان يأتمر بأمر أمين عام الحزب، حيث رفض وزير الدفاع إنزال الجيش وألقى كلمة تاريخية ذكَّر فيها الحكومة بأن الجيش وجد للدفاع عن أرض الوطن ضد الغزاة والمحتلين، وليس لضرب المصريين أيًّا كانت انتماءاتهم أو أفعالهم، فإذا كانوا خارجين على القانون فليقدموا للمحاكمة. وأنهى حديثه قائلًا: «أنا لست سعيدًا بما يحدث الآن في البلاد من فوضى، لكنني لن أسمح طوال وجودي في هذا المنصب بأن يستخدم الجيش في أي صراع سياسي».

وأحس أمين عام الحزب أن الأمور قد تفلت من يديه فصرخ في وزير الدفاع: «ماذا تقول يا رجل؟!.. البلاد ستنهار.. إنها حالة حرب لا شك فيها. لقد استجابت قوات الأمن لنداء الوطن ونزلت إلى الشوارع .. إن هذا العصيان مدعوم بقوة خارجية وذلك يفرض على الجيش التحرك».

لم يستجب وزير الدفاع لصراخ أمين عام الحزب، وقال في هدوء: «تصرف قوات الأمن ليس هذا مجال تقييمه. التاريخ لابد سيقول فيه كلمته. أما الجيش فهو ملك للشعب وليس إحدى أدوات الحكومة أو الحزب الحاكم». وبوضوح وثقة في النفس قال الوزير: «لن يسجل لي التاريخ أنني تسببت في حدوث مواجهة بين الجيش والشعب».

قال عبدالرحمن الصفتي لوزير الدفاع: «تذكَّر أنك وزير في وزارة الحزب، وأن رئيس الوزراء يصدر لك الأمر بالتصدى لتلك الفوضى التي تهدد البلاد». فانضم رئيس الوزراء على الفور إلى أمين عام الحزب قائلًا: «إنها قضية أمن قومي والحكومة بكامل تشكيلها موافقة على قرار إنزال الجيش».

نظر وزير الدفاع في أعين الوزراء واحدًا واحدًا.. بعضهم غض بصره، والبعض الآخر بدا عليه الارتباك، وقلة منهم فقط بادلته نظراته. قال لهم: «هل أنتم موافقون على قرار إنزال الجيش؟». رد عليه رئيس الوزراء: «إنه قرار الحكومة بكامل تشكيلها». قال وزير الدفاع: «إذن، أنا لست عضوًا في هذه الحكومة».

ثم أمسك قلمه وكتب على ورقة انتزعها من الدفتر الموضوع أمامه وقدمها لرئيس الوزراء، قائلًا: «هذه استقالتي.. وهي ليست مسببة حرصًا على الزمالة التي جمعت بيننا عدة سنين. كل ما أرجوه هو قبولها الآن، فإذا خرجت من هنا وأنا لا أزال وزيرًا فسأصدر قراري للقوات المسلحة بعدم التدخل في الأزمة السياسية الحالية».

في مساء اليوم ذاته توجهت قوة من ضباط الجيش إلى منزل وزير الدفاع المستقيل وطلبت مقابلته. أدى له التحية كبيرهم وكان برتبة فريق، ثم قال له: «سيادة المشير.. صدر أمر من قيادة القوات المسلحة بشأنكم، فما هي توجيهاتكم؟». قال له الوزير: «ما الأمر؟» قال الضابط الكبير: «عفوًا سيادة المشير.. الأمر هو إلقاء القبض عليكم». فقال له الوزير: «وهل تعودت في الجيش ألا تنفذ الأوامر الصادرة إليك؟». قال الضابط: «سيادة المشير..». صاح فيه الوزير: «نفذ الأوامر الصادرة إليك أيها الفريق».

في اليوم التالي تصدَّر صحف الحكومة وأجهزة إعلامها الرسمية بيانٌ رسميٌّ، يقول إن وزير الدفاع كان ضالعًا في المؤامرة وأنه رفض تنفيذ قرار الحكومة بأن يتولى الجيش حفظ الأمن، حتى يعطي الفرصة للمتمردين لإحداث الفوضى وفق المخطط المرسوم.

ووفق حالة الطوارئ التي أعلنت فقد تم حظر إصدار الصحف إلا ما كان يتبع الحكومة، وفرضت الرقابة العسكرية على البرقيات الصحفية الصادرة

من مصر، وأوقف إرسال بعض القنوات الفضائية التي تبث إرسالها من القاهرة، وانتقلت المعركة إلى الساحة الإلكترونية عبر الإنترنت والتليفون المحمول، وبدأت الصحف الأجنبية تقول إن «الكاسيت» هو الذي أسقط حكم الشاه في إيران في السبعينيات الماضية ويبدو أن التليفون المحمول هو الذي سيسقط الآن الحزب الحاكم في مصر.

وعبر رسائل التليفون كانت تصريحات الدكتور أشرف الزيني تنقل عن طريق الناشطين السياسيين إلى جموع الشعب، وعبر صور الإنترنت والتليفون كان يتم تداول وقائع التعذيب التي كان يتعرض لها بعض المعتقلين.

وتصاعدت حدة الأزمة مع استمرار حركة العصيان المدني رغم إذاعة بيان رسمي عدة مرات كل يوم يقول بأن كل من يمتنع عن أداء عمله في ظروف الطوارئ الحالية سيعتبر خائنًا وستتم محاكمته. لكن أحدًا لم يلق بالًا للبيان. وصارت بيانات الحكومة حافزًا جديدًا لانضمام المزيد من أفراد الشعب لحركة العصيان.

وهكذا توقفت الأعمال تمامًا، وفقدت قوات الأمن سيطرتها على الجماهير الهادرة، وتمسكت الحكومة بعنادها بضعة أيام تفجر فيها غضب الجماهير حتى وصل إلى أبعاد تخريبية فبدأ التهجم على مقار الحزب، وتكسير بعض مكاتب الحكومة، وتم الاعتداء على منزل اثنين من الوزراء، وأعلن عدد من أعضاء مجلس الشعب انضمامهم للجماهير الغاضبة وتأييدهم لمطالبها.

وبدأت قيادات الحزب تشعر أنه لا مفر أمامها، وخشيت انتقام الجماهير فأصدرت بيانًا، قالت فيه إنه التزامًا منها بالسياسة التي اتبعها الحزب طوال تاريخه في تلبية رغبات الجماهير فإن الحزب الحاكم يعلن استقالة حكومته.

(31)

الإفــراج

استمعت ضحى إلى بيان الدكتور أشرف في التليفزيون وهي لا تكاد تصدق ما حدث. فخلال ساعات قليلة سقطت الحكومة، وسقط الحزب، وتم الإفراج عنها، وتشكل ائتلاف القوى السياسية المصرية، وبدأت تجرى الاستعدادات لانتخابات نزيهة لأول مرة منذ سنوات طويلة.

كان الدكتور أشرف الزيني قد خرج من السجن وسط فراغ دستوري ألم بالبلاد بعد استقالة الحكومة، وانسحاب الحزب وإعلان وزير الداخلية أنه باق في موقعه حفاظًا على الأمن العام إلى أن يتم تشكيل حكومة جديدة. أما الجيش، فقد التزم رئيس الأركان الذي تولى مقاليد الأمور بعد استقالة وزير الدفاع بما كان قد أعلنه الوزير من عدم إقحام الجيش في الصراعات السياسية.

توجه الدكتور أشرف الزيني من السجن مباشرة إلى اجتماع ائتلاف القوى السياسية؛ حيث اجتمع بقيادات العمل السياسي في البلاد لتدبر الوضع العام.

وتوالت المفاجآت. فقد تمكنت مجموعة من رجال الشرطة قبل الاجتماع بيوم واحد من عزل وزير الداخلية وبعض أعوانه المقربين وانضمت إلى الائتلاف الجديد فدعت قوى الائتلاف قيادة الشرطة والقيادة العسكرية

لحضور الاجتماع، وقبيل انعقاده أصدرت الشرطة بيانًا قالت فيه إن الشرطة تضع نفسها تحت تصرف الائتلاف الممثل للقوى الشعبية، وأعلن البيان أن الشرطة لا ترى لنفسها مهمة غير حماية أمن الجماهير، فالشرطة فوق كل الخلافات السياسية وهي - مثل الجيش - ليست أداة للصراعات الحزبية. وتم في الوقت ذاته الإفراج عن المعتقلين السياسيين الذين ألقي القبض عليهم خلال الاضطرابات الأخيرة.

وفي اجتماع قوى الائتلاف الجديد الذي رأسه هذه المرة الدكتور أشرف الزيني، تم الاشادة ببيان الداخلية، كما تم توجيه التحية لوزير الدفاع المستقيل.

دام الاجتماع أكثر من ست ساعات وسط ترقب كبير من جانب الجماهير وأجهزة الإعلام المحلية والعالمية. وفي نهايته عقد مؤتمر صحفي أعلن فيه أنه قد تم الاتفاق على اختيار الدكتور أشرف الزيني رئيسًا للائتلاف فدوت القاعة بالتصفيق بينما تقدم الدكتور أشرف إلى المنصة ليعلن القرارات التي توصل إليها الاجتماع.

قال الدكتور أشرف الزيني: «إن البلاد تمر بمنعطف تاريخي مهم في تاريخها. هي مرحلة حرجة لأنها لحظة المخاض التي سيتولد عنها وضع جديد ينقل البلاد من حال إلى حال.. من زمن بال سيطرت فيه قوى الفساد والاستبداد، إلى زمن جديد تتحقق فيه آمال الجماهير في الحرية والديمقراطية والعيش الكريم».

وأوضح الدكتور أشرف: «إن ذلك المخاض الذي طال انتظاره لم يكن ليتحقق لولا هبة الجماهير التي رفضت استمرار الوضع على ما كان عليه، فكان لها الكلمة العليا التي غيرت كل موازين القوى السياسية وأتت بنا جميعًا إلى هنا».

وأضاف أنه اتساقا مع هذا الوضع، وتلبية لرغبة الجماهير، تم اتفاق أعضاء الائتلاف على تشكيل هيئة وطنية عليا مكونة من ممثلين عن مختلف القوى الوطنية، تكون مهمتها تسيير أمور البلاد لمدة ثلاثة أشهر يتم خلالها عقد انتخابات جديدة تُمثل فيها جميع الأحزاب والقوى المشاركة في الائتلاف.

وأكد الدكتور أشرف الزيني أن ذلك ليس نهاية المطاف، ولكن بدايته؛ حيث سيتعين وضع دستور جديد يتم في ضوئه مراجعة جميع القوانين السارية بما يسمح ببداية مرحلة جديدة في تاريخ البلاد تسعى لتحقيق آمال الجماهير التي تعطلت طوال السنوات الماضية.

اغرورقت عينا ضحى وهي تستمع للبيان بالدمع، ونظرت إلى شقيقها طلعت وزوجته فوجدتهما في حالة تأثر تماثل حالتها. كانت البلاد كلها في حالة تأثر بالغة كأنها خرجت من حرب حققت فيها أعظم الانتصارات، وخرجت المسيرات الشعبية إلى مقر الائتلاف تعلن تأييد مختلف فئات الشعب للائتلاف وللدكتور أشرف الزيني. وبالتدريج بدأت الأمور تهدأ في البلاد، وأخذت الحياة تعود إلى وتيرتها الطبيعية.

اتصلت ضحى لأول مرة منذ عودتها من إيطاليا بالدكتور أشرف وهنأته على سلامته، فسألها من تكون؟ قالت: «أنا مواطنة أريد القيام بمسيرة تأييد للائتلاف الجديد ولرئيسه». ضحك الدكتور أشرف ضحكته التي تصورت أنها لن تسمعها ثانية. وقال: «عرفتك أيتها الفراشة المصرية الجميلة».

ردت ضحى: «لا تعول كثيرًا على ذلك، ففراشتك قد حاولوا تقطيع أجنحتها في السجن». قال: «سيكون لها الآن أكبر وأجمل جناحين». ولم تنته المكالمة إلا وكان أشرف وضحى قد اتفقا على اللقاء.

وفي صباح اليوم التالي اتصلت ضحى بمدحت الصفتي دون وساطة أخيها. وقالت له: «أريد فقط أن أخبرك أنني سأتقدم اليوم بدعوى خلع».

قال لها بهدوء: «ولماذا؟ لقد وعدت طلعت بأنني سأطلقك بعد الانتخابات. ومادام الحزب يبدو مستبعدًا من الانتخابات القادمة التي يصفونها مع ذلك بالانتخابات الحرة والديمقراطية والشفافة، فليس هناك ما يمنع الآن من تطليقك. ستصلك ورقة الطلاق على الفور».

وضعت ضحى التليفون جانبًا وأخذت نفسًا عميقًا لم تعهده منذ فترة. أحست لأول مرة بأنها حرة.. تحررت من سجن النساء الذي نقلت إليه بالقناطر الخيرية، وتحررت في الوقت ذاته من السجن الذي عاشت فيه طوال عمرها وحتى قبل أن تعرف مدحت أو تتزوجه.

حين دخلت ضحى على الدكتور أشرف الزيني في مكتبه بمقر الائتلاف وجدته محاطًا بمجموعة من الشباب الذين أفرج عنهم حديثًا. قدمهم لها قائلا: «هؤلاء من خيرة شباب الوطن، ولولا جهودهم وجهود زملائهم ما تحررت البلاد. تعرفت ضحى على الفور على هالة التي جعلتها تهتف لأول مرة في حياتها، والتي سقطت أمامها في مظاهرة دار القضاء العالى، فحيَّتها بحرارة وقالت لها:«حمدًا لله على سلامتك يا هالة. كيف حالك الآن؟». ردت هالة: «بخير كما ترين. حمدًا لله على سلامة حضرتك. لقد كنا جميعًا نتابع أخبارك».

أقبل حسن وأيمن وسلوى على ضحى يحيُّونها ويقولون لها إنها أصبحت مثلًا أعلى لكثيرين من زملائهم الشباب.

قال الدكتور أشرف لضحى: « إننا سنحتفل قريبا بزواج هالة من حسن وزواج سلوى من أيمن». قالت: «ألف مبروك!». فقالوا لها إنهم يريدونها أن تكون مع الدكتور أشرف أول المدعوين.

كان أول ما قالته ضحى للدكتور أشرف حين اختلت به بعد انصراف الشباب إنها تشعر بأنه قد أفرج عنها اليوم فقط. قال: «وهل كنت تتحدثين

إليَّ أمس من السجن؟». قالت: «نعم. السجن الكبير الذي كنت أعيش فيه. اليوم فقط أفرج عني، فقد تلقيت ورقة الطلاق وأصبحت حرة طليقة».

ابتسم أشرف وبدت عليه علامات الرضا، ثم قال: «أكان يجب أن تتحرر البلاد كلها حتى يتم تحريرك؟». ابتسمت في صمت .

لاحظ أنها فقدت بعضًا من وزنها منذ رآها آخر مرة، رغم أن قوامها لم يفقد استدارته المميزة. أخذها بين ذراعيه في حنان وهو يقول: «ماذا فعلوا بك يا صغيرتي؟ لقد فقدت بعضًا من وزنك». قالت في هادوء: «ربما لأنني تخلصت أخيرًا من أحمال ثقيلة تحملتها سنين».

نظر الدكتور أشرف إلى عينيها الشاخصتين إلى أعلى في ملاقاة عينيه. كانت نظرة الحزن التي أسرته ما زالت بادية وكان لا يزال البريق. نادته شفتاها المكتنزتان. تذكر على الفور كيف تأملهما لأول مرة عند نافورة العشاق في روما وكيف أعرض يومها عما لم يكن يخصه.

بلا خوف ولا تردد أطبق أشرف على شفتي ضحى في قبلة طويلة طالما انتظرها كل منهما. فقد كانت إيذانًا بحياة جديدة بدأت في تلك اللحظة. ليس لأشرف وضحى وحدهما وإنما للمصريين جميعًا.

(32)

قطار إلى الشمس

خرج أيمن وسلوى مع حسن وصديقته هالة للاحتفال بعثور أيمن على والدته. قام حسن بدعوتهم جميعًا في أحد «كافيهات» شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين، ثم أوصل أيمن سلوى إلى منزلها، وقال وهو يودعها: «موعدنا غدًا للسفر إلى طنطا». نظرت إليه في إعجاب، وقالت: «لا أستطيع الانتظار».

في اليوم التالي قطع أيمن تذكرتي قطار إلى طنطا قبل الموعد بنصف ساعة ووقف ينتظر سلوى داخل محطة رمسيس. لم يكن يريد لها أن تتعرض لمشقة السفر بالسيارة كما حدث له في المرة الأولى التي ذهب فيها لأمه. جلس في مقصف المحطة يتطلع لما هو آت.

كان قد زار والدته مرة ثانية فحدثته طويلًا عن حياتها السابقة والحالية، وتعرف إلى زوجها. لم يكرهه كما تصور. كان رجلًا ريفيًا طيب القلب رغم أفكاره المحافظة، وحدثها عن حياته الحالية وتلك التي كان يتطلع إليها مع سلوى، فطلبت أن تراها.

ملَّ الانتظار. كان الربيع قد حل، فلماذا يحبس نفسه داخل هذا المقصف المظلم الكئيب؟ خرج ثانية إلى ساحة المحطة حيث ضوء النهار. تمشى قليلاً

في انتظار قدوم سلوى. حين وصلت أخيرا كان القطار يطلق صفارته منذرا بالتحرك. اعتذرت عن التأخير بسبب المظاهرات التي سدت الشوارع. أمسك بيدها وأخذا يجريان نحو الرصيف. كانت سلوى قد لفت رقبتها بوشاح حريري أبيض طويل، رفع الهواء طرفيه وهي تجرى مع أيمن للحاق بالقطار، فبديا كجناحين.

ما إن وصلا إلى عربتهما حتى قفزا داخلها فانطلق بهما القطار خارج المحطة إلى الأفق الرحب العريض حيث الشمس الساطعة.

تمت

مؤلفات محمد سلماوي

أولًا : مسرحيات :

- I Shall Tel You All مسرحية من فصل واحد (دار القارات الثلاث) واشنطن ، 1976 .
- فوت علينا بكرة واللي بعده (دار ألف للنشر) ، 1983 .
- القاتل خارج السجن (دار ألف للنشر) ، 1985 .
- سالومي (دار ألف للنشر) ، 1986 .
- اثنين تحت الأرض (دار ألف للنشر) ، 1987 .
- الجنزير (دار ألف للنشر) ، 1992 .
- رقصة سالومي الأخيرة (دار ألف للنشر) ، 1999 .

ثانيًا : مجموعات قصصية :

- الرجل الذي عادت إليه ذاكرته (دار الوفاء) ، 1983 .
- كونشرتو الناي (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 1988 .
- باب التوفيق (دار الشروق) ، 1994 .
- رسائل العودة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 2000 .
- شجرة الجميز (دار الشروق) ، 2003 .
- وفاء إدريس وقصص فلسطينية أخرى (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2002 .
- إزيدورا والأتوبيس (الدار المصرية اللبنانية) ، 2008 .
- عشر برديات مصرية (الدار المصرية اللبنانية) ، 2010 .

ثالثًا : روايات :

- الخرز الملون (دار الشروق) ، 1990 .

رابعًا : كتب أدبية وصحفية وسياسية :

- محرر الشؤون الخارجية (صحافة وصحفيون) ، 1976 .
- أصول الاشتراكية البريطانية (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 1978 .
- الصورة الجماهيرية لجمال عبد الناصر ، (الموقف العربي) ، 1983 .
- وطني مصر حوارات مع نجيب محفوظ (دار الشروق) ، 1996 .
- مائة كتاب وكتاب (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 1999 .
- نجيب محفوظ - المحطة الأخيرة (دار الشروق) ، 2006 .

خامسًا : ترجمات :

- مسيو إبراهيم وزهور القرآن - رواية إيريك إيمانويل شميت (دار الشروق)، 2005 .

سادسًا : الإصدارات الأجنبية :

1 - الإنجليزية :

- **Come Back Tomorrow and Other Plays:** Three Continents Press, Washington, 1985.
- **Two Down the Drain:** General Egyptian Book Organization, Cairo, 1993.
- **Naguib Mahfouz at Sidi Gaber:** Reflections of a Nobel Laureate from Conversations with Mohamed Salmawy, AUC Press, Cairo, 2001.
- **The Last Station: Naguib Mahfouz Looks Back,** AUC Press, Cairo, New York, 2007.

2 - الفرنسية :

- **Mon Egypte:** Naguib Mahfouz dialogue avec Mohamed Salmawy, J C Lattès, Paris, 1996.
- **Al-Ganzir** (Les Chaînes): ALEF Publishing House, Le Caire, 1996.
- **La Dernière danse de Salomé:** L'Harmattan, Paris, 2001.
- **Naguib Mahfouz : Le dernier train:** L'Harmattan, Paris, 2009.
- **Perles de Colere:** roman, Ecriture, Paris, 2009.

3 - الإيطالية :

- **L' Albero di Sicomoro,** Falzea Editore, Calabria, Italy, 2008.
- **La Porta della fortuna;** Falzea Editore, Calabria, Italy, 2009.
- **Al-Ganzir (Le Catene):** Edizionicorsare, Italy, 2009.

4 - الألمانية :

- **Das Tor des Erfolges (in FATIMAS TRAUME):** Neuer Malik Varlag, Germany, 1994.

سابعًا : كتب صدرت عن المؤلف أو ورد بها دراسة عن أعماله :

- العبث والواقع : مسرح محمد سلماوي بأقلام : د. لويس عوض، د. نعيم عطية، سعد أردش، د. غالي شكري، وآخرين (دار ألف للنشر) ، 1992 .
- المسرح المصري في الثمانينيات - تأليف الدكتور مصطفى عبد الغني (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 1983 .
- أصداء «الجنزير» بأقلام د. جابر عصفور، أحمد عبد المعطي حجازي، ألفريد فرج، سامي خشبة، رجاء النقاش، وآخرين (دار ألف للنشر)، 1996 .
- عبثية الواقع .. وواقعية العبث - تأليف الدكتور عثمان الحمامصي (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2004 .
- مسرح المواجهة : قراءة في مسرح محمد سلماوي - تأليف خليل الجيزاوي (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، 2004 .

ثامنًا : رسائل أكاديمية أعدت عنه :

- الجامعة الأمريكية بالقاهرة - كلية الأدب الإنجليزي والأدب المقارن.

رسالة ماجستير .

اسم البحث : سالومي بين أوسكار وايلد ومحمد سلماوي .

الباحثة : منيرة جمال سليمان .

المشرف : أ.د. فريال غزول .

السنة : 1993 .

- جامعة ليدز البريطانية - كلية الأدب الإنجليزي - رسالة دكتوراه .

اسم البحث : تأثير مسرح العبث على الدراما العربية.

الباحثة : حنان الغفري .

السنة : 1996 .

- أكاديمية الفنون - المعهد العالي للفنون المسرحية - قسم التمثيل والإخراج - رسالة دكتوراه .

اسم البحث : دراسة في تقنيات الإخراج المسرحي بين الواقعية والعبثية في المسرح المصري في الفترة من 1965 - 1985 .

الباحث : عثمان محمود الحمامصي .

المشرف : أ.د. سعد أردش .

السنة : 1998 .

- جامعة حلوان - الفرقة الرابعة كلية الآداب - قسم المسرح - شعبة النقد .

اسم البحث : التحريض السياسي في مسرح محمد سلماوي

الباحثة : رشا محمد زيدان سلامة .

المشرف : أ.د. حسن عطية .

السنة : 2001 - 2002 .

- أكاديمية الفنون – المعهد العالي للفنون المسرحية – قسم الدراما والنقد – رسالة بكالوريوس.

اسم البحث : تطور مفهوم البطل دراميا وفكريا عند محمد سلماوي.

الباحث : أحمد مرسي حافظ مرسي .

المشرف : أ. د. حسن عطية .

السنة : 2003 - 2004 .

- الجامعة العبرية بالقدس – قسم الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط – رسالة ماجستير.

اسم البحث : الجوانب الاجتماعية والسياسية في أعمال محمد سلماوي.

الباحثة : نعمة أفياد .

المشرف : أ . د . جبرييل روزنباوم .

السنة : 2005 .

- جامعة الدول العربية – معهد البحوث والدراسات العربية – قسم الدراسات الأدبية واللغوية– رسالة دكتوراه .

اسم البحث : المسرح السياسي في مصر ودوره في تشكيل منظومة القيم الدرامية (1967 - 1981) .

الباحث : توفيق موسى علي اللوح .

المشرف : أ . د . أحمد زكي .

السنة : 2005 .

" .. هي الرواية المدهشة التي انبعثت حية على أرض ميدان التحرير".

الأخبار

" يقدم محمد سلماوي في « أجنحة الفراشة » سبيكة من الأدب الرفيع تتضمن عصارة ثقافية عالية في فنون التشكيل والموسيقى والحياة ، مع اقتدار فذ على صناعة الرموز وتكثيف المشاعر وتتبع العلاقات الإنسانية.

د. صلاح فضل ـ الأهرام

" لو أن السلطات المصرية تقرأ الروايات بدل تقارير البوليس ربما ما وقعت فيما وقعت فيه في ميدان التحرير.

عبد الرحمن الراشد ـ الشرق الأوسط اللندنية.

"إني أبدي تقديري النقدي وإعجابي الشخصي بهذا العمل، الذي أتوقع له نجاحًا مبهرًا وطبعات متتالية".

د. محمد عبد المطلب ـ أخبار الأدب

" تعرض الرواية لعوالم جديدة طارئة على الرواية العربية ، ولا نغالي إذا قلنا أنه يمكن اعتبارها شهادة روائية وإنسانية على اللحظة التاريخية التي تعيشها مصر".

المصري اليوم

" يقدم محمد سلماوي حكايات أجاد في رسمها للقارئ بالكلمات ؛ ليعبر من خلالها عن أحلام الشعب ومعاناته ومصيره في المحن والأزمات".

نهضة مصر

"هي رحلة خلاص مجتمع بأكمله من القيود التي تكبله ، والتي تحول دون تحقيق أبنائه لذواتهم".

الجزيرة نت

"أجنحة الفراشة "، بدءًا بدلالة عنوانها ومرورًا بأحداثها، تؤكد قدرة الكاتب العربي على معايشة مجتمعه، كما تؤكد رؤيته الثاقبة وجرأته في أن يقول كلمة الحق أيًا كان الثمن الذي سيدفعه مقابلها.

طالب الرفاعي "الجريدة الكويتية"

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

9 789774 276514

الدار المصرية اللبنانية